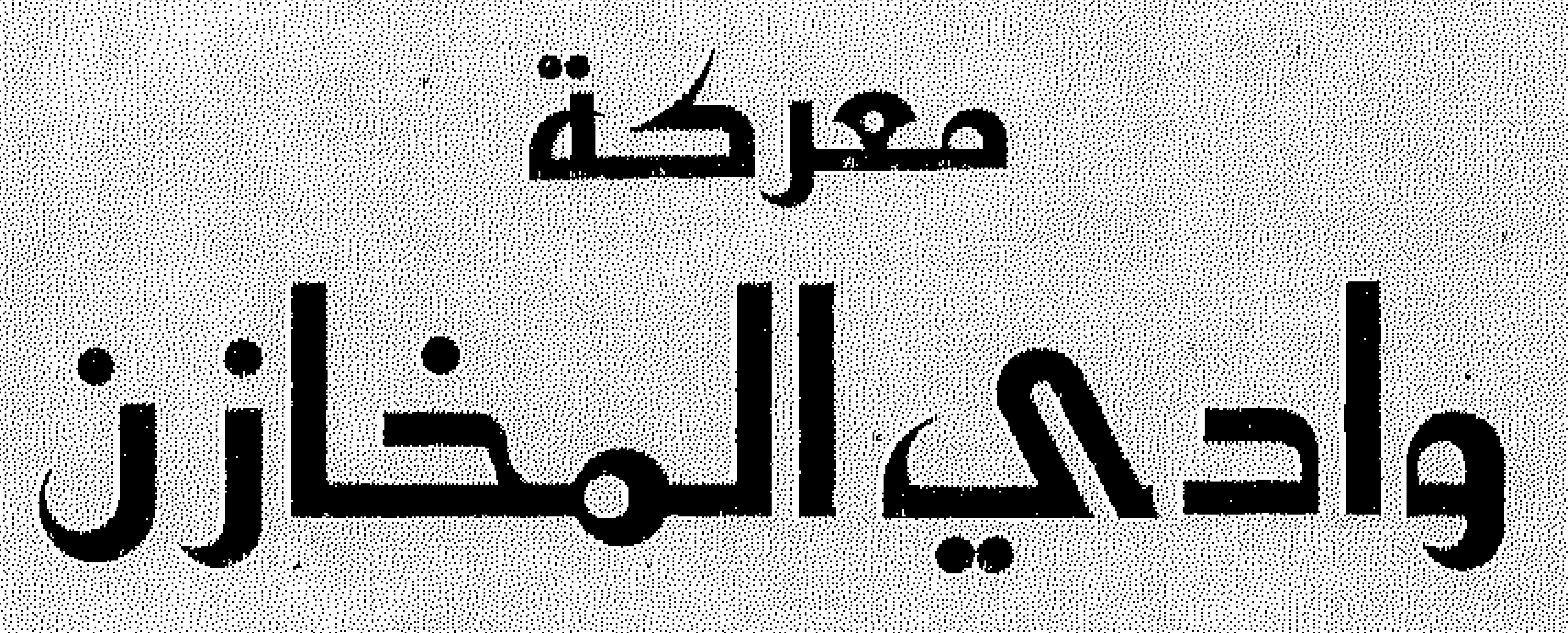
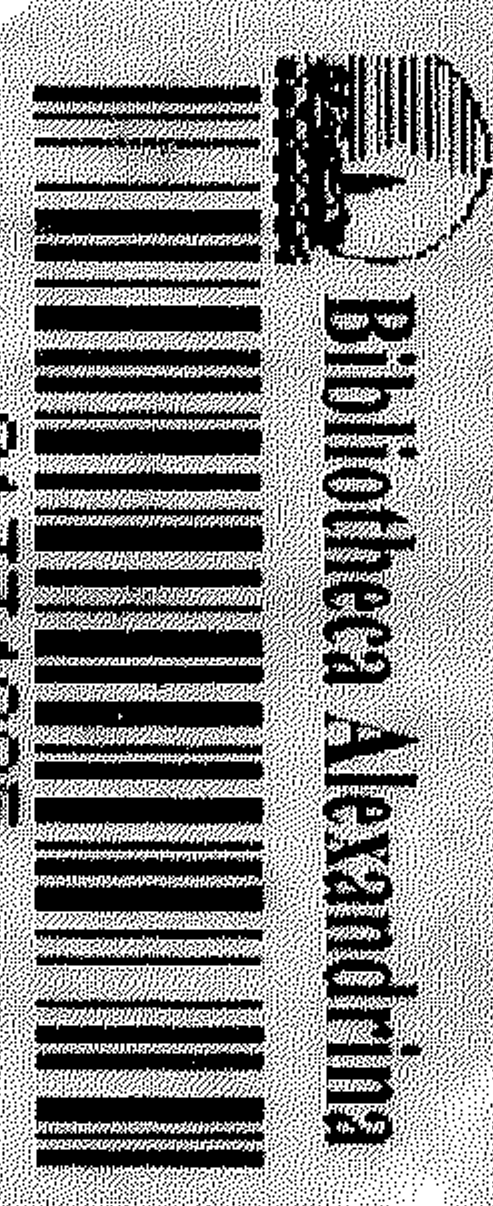


معركة
وادي المخازن

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش



معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

معركة

وادي المخازن

٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م

الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض صورًا تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث.

١ - معركة الحدث الحمراء   ٢ - معركة الزلاقة

٣ - معركة حطين   ٤ - معركة الارك

٥ - معركة المنصورة   ٦ - معركة عين جالوت

٧ - معركة فتح القسطنطينية   ٨ - معركة وادي المخازن

٩ - معركة ميسلون   ١٠ - معركة الجبل الأخضر

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر

والدكتور عمر الدقاق

والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

المغرب الأقصى:
نبذة تاريخية

معركةُ «وادي المخازن» تَنقلُنا ببطولاتِها إلى أقصى الجناح الغربيِّ منَ العالمِ العربيِّ، ويحسنُ بنا ونحن نقصُ على القراء الشَّبابِ من المشارقةِ وقائعَ هذهِ المعركةِ الحاسمةِ في تاريخِ العربِ والاسلامِ، في تلكَ المِنْطَقَةِ البعيدةِ، أنْ نزوِّدَهمْ بتمهيدٍ موجزٍ عن الحياةِ السياسيةِ فيها، منذَ أن فتحَ العربُ المسلمونَ المغربَ إلى أنْ قامتِ الدولةُ السعدية التي خاضَ جيشُها معركةَ «وادي المخازن» الفاصِلَةِ، وأوقع بالبرتغال أكبرَ هزيمةٍ سحقتْ جيوشَهمْ، وحطَّمتْ أحلامَهم بالتوسع الاستعماري في الشَّمالِ الأفريقي، وحفظت عروبةَ الجناح الغربي من العالمِ العربيِّ، كما حَفظت إسلامَه إلى الأ بدِ إنْ شاء الله.

تمّ فتحُ المغرب كلِّهِ في خلافةِ يزيدَ بنِ معاويةَ سنة ٦٢هـ على يد الفاتحِ العربيِّ العظيمِ عُقبةَ بنِ نافعٍ، وفي خلافةِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ سنة ٨٧هـ قدمَ موسى بنُ نُصيْرٍ والياً على افريقية، فوطّدَ دعائمَ السلطةِ الأمويةِ، وأقامَ الأمْنَ والنظامَ، وأرسلَ الجيوشَ عبر المضيقِ لفتحِ الأندلس، ونشر رسالةِ الاسلام فيه، وامتدت بُعيد ذلَك دَعوةُ

الخوارج (من الإباضية والصُفرية) إلى المغربِ الأقصى، على يدِ النازحينَ الهاربينَ من المشرقِ، فلَقيتْ تِلك البلادُ من الفتنِ والأهوالِ ما روّعها، حتى وصلَ إلى المغربِ المولى ادريسُ بنُ عبدِالله (من أحفادِ علي بنِ أبي طالب) فاراً بنفسِهِ منْ بطشِ الرشيدِ العباسيِّ، واستطاعَ تأسيسَ الدولةِ الأدريسيةِ سنة ١٧٢هـ هناكَ، وهي أولُ دولةٍ عربية مستقِلّةٍ في المغربِ، تمّ اقتِطاعُها من جسم الخلافةِ العباسيةِ، وبدأ المغاربةُ يستعربونَ، وأخذتِ العربيةُ تتغلّبُ على البربريةِ تدريجياً، بقيامِ عددٍ من الدولِ العربيةِ في المغرب، ولكنَّ استبدادَ العربِ أحياناً بوجوهِ المنافعِ واختصاصِهِمْ بالمناصبِ العالية، آثارا روحَ التنافُسِ على الحكمِ، وَدَفَعا بعضَ العناصِر البربريةِ إلى التمردِ والثورةِ، ثم ظهرتِ الدولةُ الفاطمية في المغربِ، وظهرَ نزاعُها مع الأمويينَ أصحابِ الأندلس على المغربِ، ثم قامتْ دويلاتٌ لبعضِ القبائلِ البربرية، وعمّتِ الفوضى في المغربِ، حتى تداركهُ اللهُ بقيام دولة المرابطين البربرية، من قبيلةِ صنهاجة، وقدْ تمكنت هذه الدولةُ الفتية من أنْ تطهِّرَ المغربَ من الفوضى، وتُهديَ إليه الأمنَ والاستقرارَ، كما استطاعتْ أنْ تَهبَّ لإغاثةِ الأندلس الاسلاميةِ، والقضاء على فساد ملوكِ الطوائف وانحلالِهم فيه، وردِّ عاديةِ النصارى المتربّصين به، وأصبحتْ مراكش التي بناها أميرُ المرابطين يوسفُ بنُ تاشفين في جنوبي المغرب ٤٥٤هـ عاصِمَةً زاهرة، ومنها انطلقتْ جيوشُهُ لنجدةِ مسلمي الأندلس، وأوقعتْ بجيوشِ ألفونس السادسِ

هزيمةً ساحقةً في معركةِ الزلاقةِ الحاسمةِ سنة ٤٧٩هـ.

ثم قامَ الموحدون بانقلابِهِمْ على المرابطينَ (وهم بربر ينتمون إلى قبيلة المصامدة)، وقامت دولةُ الموحدينَ التي استولتْ على مدن فاسَ وتلمسانَ ومراكشَ في أواخرِ سنة ٥٤١هـ، ثمَ تمكنتْ من توحيدِ المغربِ العربيِّ تحتَ حُكْمِهَا، كما قدّمت لِمسلمي الأندلسِ عونَها، ويُعدّ انتصارُ الموحّدينَ على النّصارى الاسبان في معركةِ الأركِ سنة ٥٩١هـ (وهي أخت الزلاّقة) خيرَ دعمٍ لحكمِ المسلمينَ المُتداعي في الأندلسِ، وكانتْ معركةُ الأركِ بينَ يعقوب المنصور الموحّدي وجيوشِ ألفونس الثامنِ ملكِ قشتالة.

غير أنَّ هزيمةَ وَلد المنصور (محمد الناصر) أمامَ القواتِ المتحدةِ للممالكِ النصرانيةِ بالأندلسِ سنة ٦٠٩ في معركةِ العقابِ (وهوَ موضع بين جيّانَ وَقلعةِ رَباح) كانتْ كارثةً حقيقيةً، عجّلتْ بسقوط الأندلسِ، وكانت مُنطلقاً لِسقوطِ دولةِ الموحدينَ في المغربِ، وإن استمرّ حُكْمُها أكثرَ منْ نصفِ قرن بعدها، ففي تِلك المعركةِ المشؤومةِ اتحدتْ جيوشُ ممالكَ قشتالةَ وليون ونبّارة وأراغون، يُعززّها عطفُ البابا وتأييدُ الفُرْسانِ الصليبيينَ المتدفِّقِيْن من مختلفِ البلادِ الأوربيةِ، لسحقِ المسلمينَ وإخراجِهِمْ من الأندلسِ، ولكنَّ الموحّدين كانَ لهمْ أسطولٌ بحريٌّ عظيم، ضَمِنَ لهُم السيادَة المطلقةَ على غربي البحرِ الأبيضِ المتوسطِ ومضيق جبلْ طارق، وقد حَملَ هذا

الأسطُول الموحّديّ الشواطىء الافريقية، ومنعَ تدفّق القواتِ الصليبية القادمةِ من المغربِ على سواحِل الشام.

واستطاعت دولةُ بني مرِين أن تَرِثَ الموحّدين، بعدَ أنْ أجهزت عَلى حكمِهم، وبنو مرين بُداةٌ نازحونَ مِن الصحراء المغربيةِ إلى المغرِبِ، وَقد استطاعُوا أن يتغلّبُوا على الموحّدينَ ويستأصِلوا شَأفَتَهُم (أصلهم) سنة ٦٧٤هـ، فخلصَ الحكمُ في المغربِ لَهمْ بَعْدَهم، ولكنَّ تهالُكَ أمراء بني مرين عَلى السلطةِ، وتنازُعَهُم عَليها انتهى بِهم إلى سقوطِهْم، وقيامِ دولةِ بني وَطاس ٨٧٦هـ، وهمْ فرعٌ مِن بني مَرين، إلاّ أنّهم لَم يكونوا في مِثْلِ كفايَتِهمْ وبأسِهِمْ، فضعفَ المغربُ في أيامِهم، وأغرىٰ بهِ كلَّ طامعٍ، فاستولى البرتغاليونَ على كثيرٍ من ثغورِهِ، واحتلُّوا شواطِئهُ، حتى ضجَ المغاربةُ منْ سوء الحالةِ والضعفِ والفسادِ، وَراحُوا يتدارسونَ الموقفَ، ويبحثونَ عن زعيمٍ تجتمعُ عليه كلمتُهُمْ، ليلمَّ شملَهُمْ، ويُوحِّدَ جموعَهمْ، ويُنظّم كتائبَ مُجاهدِيهمْ، لانقاذِ المغربِ منَ التدهورِ الذي صارَ إليهِ.

وهنا تبرزُ شخصيةُ الشريفِ أبي عبدِالله مُحمدٍ السعديِّ، وَقدْ وقعَ اختيارُ الفقهاء ورؤساء القبائل عليهِ، فبايعوهُ عَلى تنظيمِ قوى المجاهدِيْنَ لطردِ البرتغاليينَ المحتلّينَ للثغورِ المغربيةِ، وهكذا أصبحَ هذا الشريْفُ السعديُّ واضعَ حجرَ الأساسِ للدولةِ السعدية، وهوَ (القائمُ

بأمرِالله) رأسُ هذهِ الدولةِ وأبو مُلوكِهَا، وهيَ ثانيةُ دولةٍ عربيةٍ صريحةٍ قامَتْ في المغربِ بعدَ الدولةِ الأدريسيةِ، وكانَ بدء قيامِها في بلادِ السوس، سنة ٩١٥هـ وفي زمن حكم واحدٍ منْ أحفادِ الشريفِ تقعُ معركةُ وادي المخازنِ سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٨م ولهذا نَرى أنْ نفصّلَ الكلامَ على الدولةِ السعديَّةِ، والفترةِ التي عاصرتْ أحداثَ تلك المعركةِ العظيمة.

الدولة السعدية تُناضل لتوطيد حكمها

أمامَ عجزِ الدولتينِ المرينية والوطّاسية عنْ صدِّ حملاتِ البرتغاليينَ على الثغورِ المغربية واحتلالِهَا، تجمَّعَ المجاهدونَ منَ المغاربةِ تحت قيادةِ الزوايا الدينية لمقاومةِ الغزاةِ في صمودٍ واستماتة، ثم لجأ المجاهدونَ إلى تنظيمِ صفوفِهم، وقامتِ الدولةُ السعدية بمساندةِ الحركةِ الصوفية لتحرير المغرب من الاحتلالِ المسيحيِّ، وطردِ البرتغاليينَ من ثغورِهِ المحتلةِ، والسعديون أشراف حسنيون من أولادِ علي ابن أبي طالب، وشكّ بعضُهم في صحةِ علويتهم، وردَّهمُ إلى سعدِ بنِ بَكر بنِ هوازنَ، قبيلةِ حليمةَ

السعدية، مرضعِ النبي عليهِ السلامُ، والأرجح أنهم علويون أشرافٌ، أصلُهم فيما يقولونَ من ينبع النخل بالحجاز، نَزَلوا أولَ هِجرتِهِم إلى المغربِ بوادي درعةَ واستقروا فيهِ (بينَ زاكورة وتامكروت) منذُ بدايةِ القرنِ التاسعِ الهجريِّ، وانتقلَ بعضُهُم إلى تيدْسي في القرنِ العاشرِ الهِجْريِّ، وفي هَذهِ المدينةِ بويعَ الشريفُ محمدٌ القائم عام ٩١٥هـ زعيماً للجِهادِ ضدَّ البرتغاليينَ الذينَ احتَلُّوا أكثرَ الثغورِ المغربية، وأضرّوا بتجارةِ القوافلِ الصحراوية بتحويل طرِيق تجارة الذهبِ لصالحِهم؛ وفي تيدسي أقامَ الشريفُ السعديُّ ديوانَ حُكْمِهِ، والتَفّ الناسُ حولَ السعديينَ، وأيّدتهم الطرقُ الصوفيةُ، كما أيدّهُمْ عربُ بَني مَعقل، لِتضرّرهُمْ من تحويلِ الطريقِ التجاريةِ، وكانَ على السعديينَ قبلَ أنْ يخلُصَ لَهمُ

الحكمُ في المغربِ أنْ يقودوا حركةَ النضالِ على ثلاثَ جبهاتٍ، ويخرجوْا منها ظافرينَ، وهي:

١ ــ جبهةِ النضالِ ضدَ الاحتلالِ البرتغالي: وقدْ وجَّه القائمُ ولديهِ على رأس حملةٍ للقضاء عَلى عملاء الاستعمارِ البرتغالي ومقاومةِ تَسرُّبِهِ سنة ٩٢٣هـ، وتمكَّنَ أَحَدُ ولديهِ، وهوَ محمدٌ الشيخ، مِن استردادِ أغاديرَ سنة ٩٤٧هـ، فبدا لعيْنِ المغاربة بمظهرِ البطل لذلكَ، فَازدادوا التِفافاً حولَ السعديينَ، وقوِيَتْ شَعبيتُهُم، وَقد اضطرَ البرتغاليونَ للجلاء بعدَ ذلكَ عن عددٍ من ثغورِ المغربيةِ، مِثْلِ أزمورَ وأسفي.

٢ ــ جبهةُ النضالِ ضدَّ الوطاسيين للقضاء على دولَتِهم: وقَد تمكنَ السعديونَ من تحريرِ القسم الجنوبي مِنَ المغربِ من حكمِ بَني وطاسَ أولاً، ثُم قضوا على مَملكتِهمْ في فاس والمغربِ الشمالي

باستيلاء محمد الشيخ على عاصمتِهم سَنة ٩٥٥هـ، وقضائه على آخرِ قادتِهم فيها.

٣ ــ جبهةُ النضالِ ضدَّ الأتراكِ العثمانيين:

وقد أصر السعديونَ على الاحتفاظِ باستقلالِ المغرب، ورَفَضوا الدعاء للسلطانِ العثماني في خطبةِ الجمعةِ، فَتوترتِ العلاقاتُ بينَ الطَرفينِ، وكانَ السعديونَ يَحذرونَ مِن قوةِ جيرانِهِمُ الأتراكِ في الجزائرِ، ويخافونَ مِنْ اجتياحِهِمْ لِلمغربِ، ولا يتورَّعونَ عن مُحالَفةِ الاسبان المحتلينَ لمدينةِ وهران ضدَّ الأتراكِ العثمانيينَ، وكانَ العثمانيون يتربصونَ بالمغاربة وينتهزونَ الفرصَ لِضَم المغربِ الأقصى إلى حكمِهِمْ، لِتسهُلَ عليهِمْ مُجابهةُ الزحفِ المَسيحي البُرتغالي، وَقَد شَهِدنا انطلاقَه للاستيلاء على الجناحِ الغَرْبي من العالِمِ العربي، مُهدّداً بذلك الشرقَ

العربيَّ ومَنافِذَهُ البحريةَ تَهديداً خَطيراً، ولكنَّ المغاربَةَ بقيادةِ السعديين ظَلّوا يتمسّكونَ بنزعَتِهِمُ الاستقلاليةِ، وقَد هاجمَ محمدٌ الشيخُ تلمسانَ، فَصدَّهُ الجيشُ التركي العثماني وألحقَ بالسعديين خسائرَ فادحةً، وانتَهى الأمرُ إلى التهادنِ بَينَ الطرفينِ، والاتفاقِ على حدودٍ فاصلةٍ بَينَ دولتيهما، وبذلكَ ظلَّ هذا الجزء الأقصى من العالمِ العربي مُحتفظاً باستقلالِهِ، ولَمْ يَقع تحتَ الحكمِ العثماني الذي شملَ سُلطانُهُ العالَمَ العربيَّ كُلَّه!

وَهكذا استطاعَ السعديونَ بنضالِهِمُ المظفَّرِ في هذهِ الجبهاتِ الثلاث أنْ يوحّدوا المغربَ تحتَ حكمِهِم، ويَنصرفوْا إلى تنظيمِهِ وتحصينِهِ، فلمّا ماتَ محمدٌ الشيخُ سنه ٩٦٣هـ تولّى ابنُهُ عبدُاللهِ الغالبُ السعديُّ الذيْ اتخذَ مِن مراكشِ عاصمةً

للدولةِ، ليبتعدَ عَن حدودِ الجزائر والخطر التركيِّ الماثِل وراءها، وَقد بَلغ بهِ الخوفُ منه إلى مفاوضةِ الاسبان، وتنازلَ لَهُمْ عَن ثغرِ بادس، عِندما رأى الأساطيلَ التركيةَ تتردّدُ عليهِ وعلى مَرسى طَنجةَ، فَأمرَ بإخلاء بادسَ مِن المسلمينَ، وسلَّمَ الثغرَ للاسبانِ، ليجعلَ مِنهُمْ حاجزاً فاصِلاً بينَهُ وبينَ الأتراكِ، فَلا يجدوا سَبيلاً إليهِ، وكانتْ خطيئةً لا يغفرُها لَه التاريخُ، والمؤرخونَ يُسهبونَ في وصفِ الإذلالِ الذيْ لَحِقَ بالمسلمينَ مِن جَرَّاء ذلكَ، فقدْ نبشَ الاسبانُ قبورَ الأمواتِ وحَرقُوها، وأهانوا المسلمينَ كلَّ الاهانةِ، مِمَّا دفعَ أخوي الغالب عبدَ الملك وأحمدَ السعديَّينِ إلى الثورةِ على أخيهما، ففرّا يلْتجئانِ إلى العثمانيين بالقُسطنطينيةِ، و يلتمسان من السلطانِ العثماني العونَ لسحقِ الانحراف وتطهيرِ

الدولةِ السعدية من الخيانةِ، وعبدُ الملكِ السعديُّ هوَ بطلُ معركةِ وادي المخازنِ، وأخوه أحمدُ هوَ المنصورُ السعديُّ الذيْ جَنى ثمارَ النصرِ العظيمِ، وبَلغتِ الدولَةُ السعدِيَّةُ في ظلِّ حُكْمِهِ أوجَ عظمتها وازدِهارِها.

ولكِنَنا قبلَ أنْ نصلَ إلى الحديثِ عَنْ هذينِ الأميرينِ الأخوينِ وَجهودِهِمَا في تصحيحِ انحرافِ الحكمِ السَعدي، لا بُدّ لَنا مِن أن نُقدِّمَ صورةً موجزةً للأحداثِ التي شَهدتْها شبهُ الجزيرةِ الايبيريةِ، حينَ استطاعتْ بِجزأيها الاسبانيِّ والبرتغاليِّ أنْ تتخلَّصَ نهائياً مِن الحكمِ العربيِّ الاسلاميِّ، وتتهيأ للانقضاضِ على المغربِ، لاحتلالِ ثغورِهِ وأراضيه، بغاراتِها العُدْوانية المتوالِيَةِ.

حملات البرتغال والاسبان العداونية على المغرب

كانَ سقوطُ غرناطةَ، آخرِ الحواضرِ الاسلاميةِ بالأندلسِ، بيدِ النصارىٰ الاسبان عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م نهايةً للحُلمِ العَربيِّ في شبهِ الجزيرةِ الايبيرية، وبدايةً لانطلاقِ اسبانيا المسيحية لبَسطِ سَيْطرتِها على الضفَةِ الأخرىٰ مِنَ البحرِ، باحتلالِها الثغورَ الاسلاميةَ القائمةَ عَليها، مثلَ مليلةَ والمرسىٰ الكبيرِ ووهرانَ، غيرَ أنَّ مملكةَ البرتغالِ سَبقَت جارتَها الاسبانيةَ في هَذا المجال، لأنها تمكَّنتْ من تحريرِ أراضيها منَ الحُكْمِ الاسلاميِّ قبلها بأكثرِ من

قرنين، فَراحَت تُوطِّد قواها، وَتبني جَيشَها وأسطولَهَا، وتتأهّبُ لمغامراتِها الاستعمارِية، وفي عام ٨١٨هـ/١٤١٥م استَولى البرتغاليونَ على ثغرِ سبتة، وكانَتْ تلكَ أولى الحملاتِ الاستعماريةِ التي تقومُ بها المسيحية في هُجومِهَا عَلى غربِ العالَمِ الإسلامي، وكانَ قائدُ الحملةِ ملكَ البرتغالِ خوان الأ ولَ (يوحنا الأ ول) وَكانت لهُ مطامحُ بعيدةٌ، إذْ كانَ يَعُدُّ الاسلامَ العدوَّ الأ ول للممالكِ النصرانيةِ، و يَرى أنَّ عَليها أنْ تبذلَ أقصى جُهودِها للقضاء عَليه، ليسَ في شبهِ الجزيرةِ وحدها، بَل في افريقية والشَّرقِ كلِّه، وكانَ اختياره لِثَغرِ سَبتةَ مُنطلَقاً إلى غايتِهِ مُوفقاً: فَسَبتةُ هِيَ المَرسى الذي تُقلِعُ منهُ القواتُ الاسلاميةُ التي يُرسِلُها المغرب مدداً إلى مُسْلمي اسبانيا، وهيَ مَرفأ كبيرُ الأهميةِ في طرِيقِ القوافِلِ البحريةِ

التجاريةِ بينَ أشْبونة (لشبونة) عاصِمةِ البُرْتغالِ والثغورِ البحريةِ الايطاليةِ، وقَدْ تمَّ تَنفيذُ احتلالِ سبتةَ بإعْداد كبيرٍ وكتمانٍ شديد، حَتى تمكَّنَ جَيشٌ عرمرم يحملُهُ اسطولٌ كبيرٌ تزيدُ سُفُنهُ على مائتين وأربعينَ، من مداهمةِ مَدينةِ سَبتةَ ومُفاجَأتِها، عَلى حينِ غرَّةٍ من أهلِها الآمِنينَ، والاستيلاء عَليها على الرُغْمِ منْ استماتَةِ سُكانِها في الدفاعِ عنْ حَوزَتِهم، فَقدْ استفادَ المغيرون مِن عنصرِ المفاجَأةِ، وتَمكَّنوا منَ التَسللِ إلى المدينةِ منْ أحدِ أبوابِها، فَتَصدّىْ لَهُم أهلُها، وصَمدوْا في وجهِ الغزاةِ المجتاحينَ بِشجاعةٍ واستشهادٍ، وشَهدت شوارِعُ سبتةَ وأزقّتُها الضيقة مذابحَ رَهِيبة، ولَمْ يلجأ أحدٌ منَ المغارِبَةِ إلى الفرارِ، وَلَمْ تَغرُبْ شمسُ ذلكَ اليومِ المشؤومِ حتى خَلَت سَبتةُ مِنْ سكانِها المسلمينَ، وصارَت مدينةً برتغاليةً،

بعدَ أنْ جَرت الدماء أنهاراً في شوارعها المتحدِّرة نحوَ البحرِ!

وَنجدُ في بعضِ المصادرِ المغربيةِ محاولةً لتعليلِ استيلاء البرتغالِ المفاجىء على سَبتةَ، وهوَ خبرٌ موضوع، لِلتخفيفِ مِنْ مسؤوليةِ الغافلينَ عَنْ تأمينِ وَسائل الدِفاع عن الثغرِ، وقدْ كانَ عَليهمْ أنْ يَحسبوا لِمُداهمةِ الأعداء لَهمْ في كلِّ حينٍ حسابَهُم، وَخلاصةُ الخبرِ أنَّ البرتغالَ جاءوا بصناديقَ كبيرةٍ مُقفلةٍ، يُوهِمُوْنَ أنَّ بها سلَعاً تِجاريةً، وأنزلوها بالمَرسى في سَبتة، وكانتْ تِلكَ الصناديقُ مملوءةً رجالاً، عددُهم أربعَةُ آلافٍ منَ الشباب المحاربينَ، فَخَرجوا عَلى حين غفلة منَ المسلمينَ، واستولَوْا عَلى المدينة!

ومَهما يكنْ فإنَّ سبتة منذُ سقوطِها بيدِ النَصارى

في ذلكَ اليومِ الحزينِ لَمْ تَعدْ مغربيةً حتى يومِنا هَذا، وقَد انتقَلَت منَ الاحتلالِ البرتغاليِّ إلى الاحتلالِ الاسباني، وَهِي ما تزالُ معَ بعضِ الثغور الأخرى رازحةً تَحتهُ، ويحاولُ أشقاؤنا المغاربة اليومَ أنْ يَصلوْا إلى تَحريرِها بالطُّرُقِ السلميةِ والتَفاهُمِ الودِّي معَ اسبانيا.

إنَ استيلاء البرتغاليينَ على ثغرِ سَبتة حَدثٌ كبيرٌ، فهوَ فاتحةٌ سوداء للهجوماتِ الصليبيةِ والاستعمارية المتوالِية عَلى المغربِ، وغايةُ البرتغاليينَ مِنها تركيزُ السَيطرةِ المَسيحيةِ في أرجاء المغربِ، لتسهيلِ مهاجمةِ الشَرقِ الاسلامي مِن جهـةِ البَحرِ، وَبِذلكَ يتأتّى لَهمْ «ضربُ الاسلام في ظهرِهِ» كَما يقولُ الضابطُ البرتغالي المؤرخُ فاسكو دي كرافالو في تَحليلِه لِغزوِ سَبتة، والرُوحُ الصليبيةُ التي طَغَت عَلى

البرتغالِ يومذاك، ودَفعَت مَلِكَهُمُ خوان الأولَ إلى مهاجمةِ المسلمينَ في عُقرِ دارِهِمْ، «لِمطارَدةِ الوَحش في مكْمنِه» والقَضاء عليهِ! ومِنْ رأي هذا الضابطِ المؤرخِ أنَّ استيلاء البرتغال على سبتة «حادثٌ عظيمٌ يُعتبرُ ابتداء لعهدِ الفتوحاتِ، وهوَ أولى بأنْ تُؤرّخَ بهِ العصورُ الحديثةُ، مِنْ أنْ تُؤرّخَ بسقوطِ القسطنطينيةِ في يدِ المسلمين!».

والحقُ أنَّهُ لَمْ يَمض قرنٌ واحدٌ على احتلالِ سَبتة حتى كانتْ أكثرُ الثغوْرِ المغربية قَدْ تمَّ استيلاء البرتغاليينَ عَليها، وذلكَ خلالَ فترةِ الضعفِ والتدهورِ التي شَملَتِ المغربَ ما بينَ انقراضِ الدولةِ الوطاسيةِ وظهورِ الدولةِ السعِدية:

وهَكذا استَولى البرتغاليُّوْن عَلى القصرِ الكبيرِ (٨٦٢هـ) وعَلى طَـنْجة (٨٦٩هـ) وأصيلة

(٨٧٦هـ) والجديدة (٩٠٧هـ) وعَلى العرائشِ وأغاديرَ (٩١٠هـ) وعَلىْ أسفي (٩١٢هـ) وأزمور (٩١٤هـ) والمَعمورة (٩٢٠هـ) وبذلكَ تَمَّ احتلالُهُمْ لمعظمِ الشواطىء المغربيةِ، لِضَعفِ عدوِهمْ وتفرّقِ كلمَتِهِ مِنْ نحوٍ، ولِتَفوّقِهم في الأسلحةِ الحديثةِ ــ ولا سيا المدافع ــ مِنْ نحوٍ آخر.

وَفي هذا الوقتِ كانتْ اسبانيا النصرانية قَدْ أتَمَّتْ تحريرَ أراضيها مِنَ الحُكْمِ الاسلاميِّ، وتوطيدَ سُلطانِها عَليها، ثمَّ راحَت ترقُبُ حملاتِ جارتِها البرتغالية على شواطىء المغربِ الأطلسية، ثم راحَتْ بتأييدٍ منَ الكاردينال خمنيس ــ صاحب سياسةِ تنصير المسلمين المغلوبين على أمرِهمْ في اسبانيا ــ تُعِدُّ حملاتِها العدوانية عَلىْ ثغورِ المغربِ القائمة عَلىْ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، وَقَد أشرْنا إلى استيلائها

عَلىْ مَليلةَ والمرسى الكبير وَوَهرانَ في مُقدِّمَةِ هذا الفَصل، وكانَ الكاردينال المتعصِّبُ يقودُ بنفسِهِ حملاتِ العدوانِ، وَيشهدُ ما يُرافقها مِنْ مناظرَ وحشيةٍ وجرائمَ غيرِ انسانيةٍ، والمؤرخونَ يَتحدثون عَنِ الفظائع التي لَقيها أهلُ وهرانَ المسلمون مِنَ الغزاةِ المحتلينَ الاسبان، بقيادةِ كاردينالهم خمنيس، والحقُّ أنَّ النزعةَ الصليبية الحاقدة كانتْ طاغيةً على تلكَ الحملاتِ الاسبانية والبرتغالية، ولَعلَّها كانت أمراً لا مفرَّ مِنهُ، بعدَ انهيارِ الحُكمِ العَربي الاسلاميِّ في شبهِ الجزيرةِ الايبيرية، وانحسارِهِ عَنْها، وارتدادِ بقاياهُ إلى المغربِ، وهي في حالٍ يُرثىٰ لَها منَ الضَعفِ والانحِلالِ والتَدَهورِ، وكانَ المغربُ قبلَ قيامِ الدولةِ السعدية وَاشْتدادِ عُودِها يجتازُ مَرحَلةً مِنَ الضَعفِ والتَمَزُّقِ، يَسَّرتْ عَلىْ الغُزاةِ المُحتَلين

مُهمَّتَهمْ، وسَهَّلَت لَهمْ أنْ يُغالوا في أحقَادِهِمْ عَلى قاهِرِيهِمْ، وقَدْ أصبَحوا اليومَ مَقهورين مَغلوبين.

غيرَ أنَّ هؤلاء المحتَلينَ لِلثُغورِ المَغربية، مِن بُرتُغاليينَ وَإسبان، لَمْ يَستطيعوا أنْ يتجَاوزوْا الشواطِىء المغربية بِنفوذِهمْ، ولا أنْ يبسطوا سُلطانهُم إلى داخِلَ المغرب، كما لَمْ يَستطيعوْا أنْ يَربطوا بينَ تِلكَ الثغورِ التي شَملَها احتلالُهُمْ، فَظلّوا يَحتمونَ وراء أسوارِها، ويستَفيدونَ مِن مراسيها ومنافِذِها البحريةِ، وَلَم تُثمرْ مُحاولاتُهُمْ لِعَقد الصلاتِ السلميةِ والتجارية معَ المغاربةِ، لأنّ ردَّ الفعل عندَ هؤلاء كانَ قَوياً، «والفضلُ في ذلك ـــ يقولُ محمدٌ الفَاسيُّ ـــ يرجِعُ إلى الرُوحِ الدِينية الوطنيةِ الَتي استطاعَ المؤمنونَ المخلِصونَ أنْ يُبْقُوها في نفوسِ المسلمين، فَقامتْ في البلادِ حركةٌ صوفيةٌ

واسعةُ النطاقِ، وأقبلَ زُعماؤها على تنظيمِهَا وتَوجيهِها نحوَ مُقاومةِ العَدو [المحتلّ]، وشنِّ الغاراتِ على مراكزِهِ»، وقَد أشرنا من قبلُ إلى أثرِ الوعي الدينيِّ والحركةِ الصوفيةِ في قيامِ دولة السعديين، وتَوجيهِها للجِهادِ ضدَّ الغزاةِ المحتلينَ، والعملِ على تحريرِ الثغورِ المغربية مِن احتلالِهِمْ، وهكَذا تمكن محمدٌ الشيخُ السعديُّ مِنْ تحريرِ أغادير بغارةٍ مظفَّرةٍ عَلىْ البرتغاليينَ فيها عام ٩٤٧هـ/١٥٤١م، بعد احتلالِهِم إياها أكثرَ مِنْ سبعينَ عاماً، وراحَ يتهيأ لتحريرِ الثغورِ الأخرى، فأسرَعَ البرتغاليونَ بإخلاء أسفي وأزمور وأصيلة، لِما شَهدوا منْ صمودِ المغاربةِ بقيادةِ السعديينَ واشتِدَادِ شوكتِهِم، فَتمَّ تحريرُ أسفي وأزمور عام ٩٤٨هـ، كَما تمَّ تحريرُ أصيلة والقصرَ الصغير بعدَ ذلك بأقل مِنْ عقد منَ السنينَ (العقد:

عشر سنوات)، ولمْ يبقَ بيدِ البرتغاليين غيرُ طانجةَ وسَبتة في الشَّمالِ، والجديدةِ في الجنوبِ.

وقدْ حاولَ عبدُاللهِ الغالبُ السعديُّ أنْ يحرِّرَ الجديدة لِيَقضيَ عَلىْ الوجودِ البُرتغاليِّ في جنوبِ المغرب، فَحاصَرها بجيشٍ كَثيفٍ عامَ ٩٦٩هـ، ولكنهُ لَمْ يتمكَّن مِنْ فتحِهَا، على الرُغْمِ من قوةِ الجيشِ السعديِّ وحُسْنِ تَحضيرِهِ وعِظَمِ مدافعه وبَسالة رِجاله وَبراعة رُماتِه، واضطرَ السعديونَ إلى رفعِ الحِصارِ عن الجديدةِ بعدَ خمسةٍ وثمانينَ يوماً من الجلادِ والقتالِ، في انتظارِ ظروفٍ مواتيةٍ أخرى، ويُعلِّلُ محمدٌ الفاسي صمودَ البرتغاليينَ ومقاومَتهُمْ في الجديدة باستياء الشعبِ البرتغاليِّ من هزائمِ قواتِهِ المتوالية في الثغورِ المغربية، وحملة الدعاية التي قادَها الرُّهبانُ والعسكريونَ فألهبوا بِها حماسَةَ الشبابِ

المجنّدينَ وأثاروا عزيمتَهَمُ عَلى الاستماتَةِ والصمود، لسَحقِ المقاومة المغربية والتغلُّبِ عَليها، وهكذا أخفَقَتْ محاولةُ الغالبِ السعديِّ لِطَردِ البُرتغال مِنْ جنوبِ المَغْرِبِ، ثُمَّ تَبِعَ ذلكَ تَنازلُه عَن ثَغر بادس في الشَّمالِ إلى الاسبانِ كما قَدَّمنا، فأغضب بذلكَ أخويهِ عبدَ الملكِ وأحمدَ، فثارا عليه، والتجأا إلى الجزائرِ، وَمِنها إلى القسْطَنطينية، يلتمسانِ عونَ السلطانِ العثمانيِّ لهما، وفي غيابِهما توفيَ الغالبُ عام ٩٨١هـ، وبُويِعَ ابنُهُ محمدٌ، فتلقَّب بالمتوَكِّلِ على الله، وكانَ مُستبداً ظالِماً، فظّاً غليظَ النفسِ، فعمَدَ بَعد مبايعتهِ إلى قتلِ اثنينِ من اخوته، وسجنِ أخٍ ثالثٍ لهُ، فكَرهتْهُ الرعيةُ، ونَفَرَتْ منه، وبذلك يَسَّرَ هو نفسُهُ الطريْقَ لعَمِّيهِ الثائرين إلىْ عَزلِهِ، وهكَذا نعودُ إلى الأميْرِ العم عبدِ الملكِ السعديِّ

وأخيهِ أحمدَ المنصورِ، لِنرافقهما في طرِيْقِهِما إلى الفوزِ بالعرشِ السعديِّ، وقيادَتِهِما الحكيمةِ الحازِمَةِ للشَعبِ المَغربي إلى النَصرِ العظيمِ في معركةِ وادي المخازنِ الحاسمةِ.

عبد الملك السعدي وكفاحه لتسلّم مقاليد السلطة

في المصادرِ التاريخيةِ المغربيةِ ثناء كبيرٌ على شخصيةِ الأميرِ السعدي عبدِ الملكِ، لِما كانَ عليهِ من السَّجايا الحميدةِ والشجاعةِ والكِفاية العسكريةِ والعلمِ، ويَبدوْ أنَّ تكْوينَ الأميرِ المغربيِّ كانَ يُؤهلُهُ خيرَ تأهيل لِتسلُّم مقاليْدِ الحُكْمِ، فقَد كانت ثقافتُه غَنيَّةً جَامعةً، وكانَ يُتقنُ عدّة لغاتٍ أوربيةٍ وشرقيةٍ، إذْ كانَ في شبابِه قضى مدَّةً طويلة في عاصِمَةِ الدولةِ العثمانِيَّةِ اسطَنْبول، وكانَ ذكياً واسِعَ الاطلاعِ على الأحوالِ السياسِية العالمِية،

وكانَ الأميرُ السعديُّ في أيام ِأبيهِ محمدٍ الشيخِ مُقيماً بسجلماسة، مَع أخيهِ الأميرِ أحْمدَ، فلمَّا ماتَ الأبُ وتَولى الأمرَ بعدَهُ أخوهما الغالِبُ باللهِ، خَافا عَلى نفسَيهما منهُ، وقد كانَ بطـَّاشاً لا يَتوقف في سَفكِ الدماء، ففَرا إلى تَلمسان، ثم التَحقا بالجزائرِ، وكانَتْ أمُّ عبْدِ الملك الحرةُ سحابة الرحمانيَّةُ تُرافقُه، وقَدْ أكرمَ والي الجزائر التركيُّ حَسَنُ بنُ خَيْرِ الدينِ وفادَةَ الأميرينِ لمغربيينِ وأعجِبَ بعقلِ عَبُدِ الملكِ وشهامَتِهِ، وزوَّجه ــ فيما يُقال ــ ابنتَهُ، ووعدَهُ بإقناع الخليفةِ العثماني بمساعدَتهِ، وهيَّأ لهُ أسبابَ السَّفَرِ مع والدتهِ إلى القسطنطينيةِ.

كانَ العثمانيونَ آنذاكَ يُعدُّوْنَ حملةً كُبْرى لِتخْليص تُونس من الاحتلالِ الاسبانيِّ، وكانَ السلطانُ سليمٌ يجهّزُ قوات ٍضخمةً لِذلكَ، فلمّا وصَلَ

الأميرُ السعديُّ إلى رحابه، استقبَلَهُ بحفاوةٍ كبيرةٍ، ورأى أنْ يستفيدَ مِنْ خبرته، وأذِنَ لهُ بأنْ يُشارِكَ في الحملةِ، وجعلَهِ واحِداً من قادَتِها، تحتَ إمْرَةِ القائدِ العامِّ سنان باشا، وسارَ الأسطولُ العثمانيُّ (في أربعمائة وخمسين سفينة) مِنَ القسطنطينيةِ في فاتح ربيع الأول من عام ٩٨١هـ، قاصِداً مَرسى تونس عندَ خليج الوادي، وكانَ الاسبانُ قَدْ أقاموا عَليه أسواراً حصينةً، ووصلَ الأسطولُ بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ إلىْ حلقِ الوادي، وكانَ واليَا القيروانِ وطرابلسَ يحاصرانِ تونسَ منذُ مدةٍ، حتَّى فترَ عزْمُهُما لمناعَةِ الأسوارِ وشدةِ مُقاومةِ الاسْبان، فلما قدِمَ الأسطولُ بالحملةِ الكُبرى قَويتِ النفوسُ، وشُدِّدَ الحصارُ على حصنِ حَلقِ الوادي، حتَّى تَمَّ اقتِحامُهُ عَنْوَةً في السادسِ مِن جُمادى الأولى مِنَ السنةِ المذكورةِ،

بعدَ قتالٍ ضارٍ، وكانَ النصرُ مبيناً، وقَدْ شارَكَ الأميرُ السعديُّ عبدُ الملكِ في تحقيقِه، بمهارَتِهِ العسكريةِ وشَجاعتِهِ وكِفايتِهِ، وطيَّرَ أخبارَ النصرِ إلى والدتِهِ في القسطنطينيةِ، فكانتْ أولَ مَنْ أبلَغَ الخليفةَ العثمانيَّ نبأهُ، قَبْلَ أنْ يصِلَ إلى البابِ العالي، وَقيلَ إنّ الأميرَ عبدَ الملكِ وأخاهُ الأميرَ أحْمدَ تمكَّنَا مِنَ الوصولِ عائدينَ إلى القِسطنطينيةِ بعدَ النصرِ في معركةِ حَلْقِ الوادي قَبْلَ المراكبِ الأخرى التي كانَتْ تحملُ أخبارَ النصر إلى البابِ العالي، فأتيحَ لهما أنْ يَحملا البشارَةَ بالنَّصْرِ إلى السلطانِ العثماني في مقابلةٍ خصَّهُما بِها، واغتَنَما الفُرْصَةَ فعَرضا عليه أن يُقدّم إليهما عَوْنَهُ للقضاء على الانحرافِ الذي بدا من أخيهِما الغالبِ بتنازُلِهِ للاسبانِ عن بادس، عداء للعثمانيين، وخيانةً للأمانَةِ التي وضَعها

الشعبُ المَغربيُّ في عُنُقِهِ، فاستجابَ الخليفةُ العثمانيُّ للطلبِ، وزَوَّد الأميرينِ السعديَّين بالأموالِ والسلاحِ والأقوات، وكتبَ إلىْ واليهِ في الجزائر أنْ يضَعَ خمسَةَ آلافٍ منْ عسكرِ التركِ تحتَ قيادَتِهما، لاجتياحِ أرضِ المغربِ الأقصى.

ورَجعَ الأميرانِ السعديان إلى الجزائرِ لإعدادِ الحملةِ، وفي خلالِ ذلكَ تُوفي الغالِبُ باللهِ، في أواخرِ رمضانَ عام ٩٨١هـ وتَولّى ابنُهُ محمدٌ المتوكلُ على اللهِ مكانَهُ، وكانَ ـــ كما قدّمنا ـــ مستبداً ظالماً سيّءَ السيرَةِ، فكرهتْهُ الرعيّةُ، ونفَرت منهُ حاشِيتُهُ ورؤوسُ أجنادِهِ، وانتهزَ عمهُ عبدُ الملكِ الفرصةَ المُتاحةَ، فراحَ يكتبُ إليهِمْ واعِداً ومُرغِّباً، لِينفَضُّوا مِنْ حولِ ابنِ أخيه، و يلتَحِقوا بجموعِهِ الزاحفةِ، وظلَ عبْدُ الملكِ يُحْكِمُ أمرَ حملتِه، و يُعدُّ لها، بإحكامِ

وتأنٍ ودَهاء، حتى تمَّ لهُ دخولُ المغرب على رأسِ جيشٍ مِنَ الأتراكِ، زاحِفاً بهِ نحوَ فاسَ، دونَ أنْ يُلاقي في طريقهِ مُقاومةً، لأنَّ الشعبَ المغربيَّ كانَ قدْ ملَّ حُكْمَ مُحمدٍ المتوكلِ واستبدادِهِ، وتَمنى زوالَهُ؛ وعندَما بَلغ المتوكلَ وصولُ عَمِّهِ إلى قَريبٍ من فاس، خرجَ لملاقاتِهِ في جماعَةِ جنده، وبعدَ تناوش يسيرٍ بينَ الطرفينِ، أخذ قادةُ جيشِ المتوكلِ ينضمُّونَ بجندِهم إلى عَمِّهِ، وفي مقدِّمتِهِمْ سعيدٌ الرغاليُّ وجماعتُهُ مِنْ جندِ الأندلس، وتَبعهُ القائدُ جرمون وأولادُ عمرانَ والقائدُ ابنُ شقراء، وكانَ هذا الأخيرُ مِنْ أكبرِ قُواد المتوكلِ وأخلصهم لديهِ، وقَدْ ارتاعَ لِذلك، وأدركَ أنَّ كلَّ مَنْ حوله غادرٌ به، يتمنى الالتحاق بعمِّهِ، فاشتدّ جَزعُهُ، وفرَّ ناجياً بنفسِه، وَعطفَ عَلى فاس الجديد فَحملَ ما استطاعَ

مِنَ الذخيرةِ، في طريقهِ إلى مراكِش، وَخلا لِعمِّهِ الطريقُ إلى فاسٍ، فَدخلها واسْتولى عليها في السابع من ذي الحجةِ سنة ٩٨٣هـ، (٣١ آذار ١٥٧٦م) وقَدْ تلقاهُ أهلُها وعلماؤها بالفرحةِ الغامرة، لأنَّ أخبارَ بلائهِ في معركةِ حَلْقِ الوادي ضِدَّ الاسبان كانت قَدْ بَلغتهمْ فأحبُّوهُ، وأسرعوا إلى مبايعتِهِ.

أمّا محمدٌ المتوكل فقَدْ توجَّه إلى الجنوبِ، فتبعَتْهُ جيوشُ عبدِ الملكِ، التي تمَّ تنظيمُها على عجلٍ، مِنَ الجندِ الذينَ تمَّ تكوينُهُمْ باشرافِ عبدِ الملكِ نفسِهِ، وجندِ ابن أخيهِ المنفضِّينَ عنهُ، وقَدْ تمكَّنت هذه الجيوشُ مِن إيقاعِ هزيمةٍ ثانية بالسلطانِ المخلوعِ عَلى وادي الشراط، قربَ سلا، ولكنَّه استطاعَ أنْ يفرَّ مرةً ثانية، ويلتجىء إلى مَراكش، فطارَدتْهُ جيوشُ عبدِ الملكِ، بقيادة أخيهِ الأميرِ أحمدَ، وتَمكَّنتْ مِنْ

إخراجِهِ منْ مراكش، فهربَ إلى الشمالِ، وطَلبَ من والي بادس الاسبانيِّ أنْ يقبلَ التجاءهُ إليه، ووافق فيليب الثاني ملكُ الاسبان على التجائهِ وأذِنَ لواليه بِذلكَ، ودَخلَ السلطانُ عبدُ الملكِ مدينةَ مراكش بعدَ مبايعةِ أهلِها له، وقد استقرَ لهُ حكمُ المغربِ، وعيَّن أخاهُ أحمدَ نائباً عنهُ في فاسٍ، وكانَ المغربُ بعدَ تلك السنوات الحالكةِ مِنَ الحروبِ الأهليةِ بحاجةٍ إلى كثيرٍ منَ الاصلاحاتِ الاقتصاديةِ والعَسكريةِ، وكانَ على السلطانِ عبدِ الملك السعديِّ (الذي تَلقّبَ بالمعتصِمِ بالله) أنْ يُشمِّرَ عَنْ ساعديهِ للقيام بها.

عبد الملك يُوالي اصلاحاته الاقتصادية والعسكرية

تَسلَّم السلطانُ السعديُّ عبدُ الملكِ مقاليدَ الحكمِ في المغربِ، بعدَ عَزلِ ابنِ أخيهِ المتوكلِ وطردِهِ، لِيَجِدَ خزينة الدولة فارغةً، والجيشَ المغربيَّ في حالةٍ يُرثى لها مِن التفكُّكِ والتَمزقِ والفَوضى، فَعكَفَ على دراسةِ الوضعِ المتردِّي، وراحَ يلتمسُ أنجعَ الحلول للنهوض بالبلادِ اقتصادياً وَعسكرياً، والقيامِ بالاصلاحاتِ العاجلة اللازمة لبناء دولةٍ غنيةٍ وجيشٍ قوي قادرٍ عَلى حمايةِ البلادِ وَإقرارِ الأمنِ

وتوفيرِ الاستقرارِ للحُكم، وقد دلّل عبدُ الملكِ بما أنجزهُ في المَجالينِ الاقتصادِيِّ والعسكريِّ عَلى مواهبِ رجلِ دولةٍ كبير، ففي المجالِ الاقتصاديِّ لَمْ يلجأ إلى فَرْضِ ضرائبَ جديدةٍ على الشَعبِ، فتلكَ وَسيلةٌ سهلة تَملأ خزينةَ الدولةِ ولكِنَّها تُفقِرُ الشعبَ وتَحولُ دون نُموِّ اقتصادِهِ، وَلهذا عَمدَ إلى وسائلَ بنَّاءةٍ أخرَى، تَعتمدُ على التجارةِ البحريةِ، فأمرَ بتجديدِ السفنِ وَبناء مراكبَ جديدةٍ، فأنتَعشتْ بِذَلك الصناعاتُ، وراجَتْ حركةُ التجارةِ البحريةِ، إلى ما رافَقَها مِن الاستيلاء عَلى مراكب الأعداء، لأن المغربَ كانَ في حربٍ دائمةٍ مَع النَصارى المجاورينَ؛ والمحتلينَ بعضِ مدنهِ ومَراسيهِ، وأصبحَ ذلكَ كلُّهُ يَدرُّ على خَزينةِ الدولةِ مواردَ ضخمةً، وسلكَ عبدُ الملك السعدي سبيلَ التَقشفِ، لِيَصرفَ

مواردَ الدولة كلِّها عَلى تقويةِ أجهزتها وبناء قواتٍ عسكريةٍ منظمةٍ ومدرّبة، وتَسليحِهَا بأحدثِ الأجهزةِ والأعتدة، وكانَ عبدُ الملكِ يسهرُ بنفسِهِ على تكوينِ الجيشِ المغربي، واقتباسِ أنظمةِ الجيش التُركيِّ وَتطبيقها على القواتِ العسكريةِ المغربية، في أسالِيبها وألبِستها وأسلِحَتِها وَمراتبها في القيادةِ، حتّى تمَّ لهُ خلقُ جيشٍ مغربيٍ جديدٍ في مُدّةٍ قصيرةٍ جداً: جيشٍ حسنِ التنظيمِ والتدريبِ والتجهيزِ، يَندرُ وجودُ مثلِهِ في ذلكَ الحينِ عندَ دَولَتي الاسبان والبرتغال، وَهما يومذاك مِنْ أعظمِ الدولِ الأوربية قوةً وَأكثرِها جُنداً وأغناهُا سِلاحاً.

وَعلى أكتافِ هذا الجيشِ المغربي الجديدِ، وَبسواعدِ رجالهِ الأشداء، سَيحققُ عبدُ الملك السعدي انتصارَ المغربِ العظيمِ في معركةِ وادي

المخازنِ، وسيَسْحَقُ بهِ قواتِ الجيوشِ الجرارةِ الزاحفةِ على المغربِ لقهرِهِ وإذلالِهِ، بقيادَةِ دون سباستيان ملِكِ البرتغال الملتَهبِ حقداً على الاسلامِ، ورَغبةً في تَدميرِهِ، وظمأ إلى احتلالِ ديارِهِ، وانتصارُ الجيش المغربيِّ الذي كوَّنهُ عَبدُ الملكِ السعديُّ على الجيوشِ الضَخمةِ المغيرةِ أكبرُ شاهدٍ عَلى أنَّ السلطانَ المجاهدَ قَد بَنى فَأحسنَ البناء، وأجادَ التكوينِ.

وهكذا تكونُ اصلاحاتُ عبدِ الملكِ السعديِّ التي حَققتْ للمَغربِ ازدِهارَهُ الاقتصادِيَّ وَتقويةَ أجهزَتِهِ الدفاعِيَّةِ، وأشاعَتِ الأمنَ والاستقرارَ في البلادِ، ويسَّرت للشَعبِ أسبابَ الرفاهيةِ، وبثَّت في النفوسِ الشعورَ بالعزَةِ، ووَحَّدتْ كلمِةَ البلاد وألَّفت بينَ القلوبِ.. هيَ الأساسُ المتينُ الذي قامَ عليهِ النصرُ الكبيرُ في معركةِ وادي المخازنِ.

الدون سباستيان يحلم بالاستيلاء على المغرب

ملكُ البرتغال الشابُّ، أبوهُ الأميرُ يوحنا البرتغاليُّ، وأمُّهُ ابنةُ الامبراطورِ شارلكان وأختُ فيليب الثاني ملكِ اسبانيا، رُبيَ في كَنفِ اليَسوعيينَ، ونشأ في جوٍّ محمومٍ بالتَعصّبِ على الاسلامِ، فحملَ في جوانِحِهِ رُوحاً صليبيَّةً مضطرِمَةً، وملأتْ مخيِّلتَهُ سِيَرُ الفرسانِ الصليبين، وفتنتْهُ الأحاديثُ مِنْ حَوله عَن شجاعةِ الأ بطالِ البرتغاليين في معارِكهمْ مَع المسلمينَ في الشَّمالِ الأفريقي،

فأصبحَ أكبرُ أمانيهِ أنْ يقودَ حملةً صليبيَّةً كُبرى عَلى المغربِ، وكانَ جلوسُهُ عَلى عرشِ البرتغال في سنٍ مبكرةٍ، قبلَ أنْ يبلغَ الخامسَة عشرةَ، فأصبحَ شديدَ الغرور، وهوَ يجدُ نفسَه على رأسِ أعظَم دولةٍ في ذلك العَصرِ، يَمتدُّ سلطانُها على أراضٍ واسعةٍ مُنْتشرةٍ في كلِّ قارَّاتِ الدُنيا، فصارَ يحلُمُ بامتلاكِ الدُّنيا كلِّها، وَيحلُم باحتلالِ ديارِ الاسلام، واسْتخلاص الأماكِن المسيحيةِ المقدَّسةِ في المشرقِ مِن أيدي المسلِمينَ، ثُمَّ رأى أنَّ تنفيذَ المرحلةِ الأولى مِن أحلامِهِ الكبيرةِ أنْ يَستوليَ على المغربِ، ليَنطلِقَ منهُ إلى احتلالِ الشمال الأفريقيِّ، في طريقهِ إلى اجتياحِ المشرقِ العربي، وَقدْ قامَ بنفسِه معَ ألفينِ مِن جُنودِهِ برحلةٍ استطلاعيةٍ إلى سبتةَ، وطافَ حولَ بعضِ الثغورِ المغربية الأخرى، وكانَت سنُّه حِينذاكَ

أربعةً وعشرينَ عاماً، وقَدْ بَلغتْ أحلامُهُ الصليبية ذِروَتها، ورجعَ إلى البرتغالِ وقَدْ تأكدَّ لَهُ أنّ المغربَ في حالةٍ من الاضطرابِ والضعفِ والتمزُّقِ تيسّر أمر الاستيلاء عليهِ، بَل تجعلُ احتلالَه أمامَ الجيشِ البرتغاليِّ وقُواتِهِ واستعداداتِهِ أمراً سَهلاً، وكانَ المغربُ في ذلك الحينِ قَد شهدَ وفاةَ الغالبِ بالله السعديِّ وتَوَلِّيَ ابنِهِ محمدٍ المتوكلِ زمامَ السُّلطةِ من بعده (عام ٩٨١هـ/١٥٧٤م)، فعزم الدون سباستيان على انتهازِ الفُرْصةِ لتحقيقِ أحلامِهِ في قيادة حملةٍ صليبية على المغرب، فراح يُحاولُ إقناعَ خالِهِ فيليب الثاني ملكِ اسبانيا بالاشتراكِ فيها، و يصوِّرُ له سهولةَ النصرِ وعِظَمَ المكاسب المنتظرةِ، فإذا تمَّ سحقُ المملكةِ المغربيةِ زالَ الخطرُ الذي يُهدِّدُ اسبانيا بعودة الأندلسيين النازحين إلى المغربِ إلى

وطنهم، أمّا إذا تقوَّتِ الدولةُ السعديةُ ونهضتْ بما تدعو إليه من جهادِ النصارى، ففي إمكانِهَا إذا أمدَّتْها الدولةُ العثمانية بالعونِ أنْ تُعيدَ الكرَّةَ على الجزيرةِ الأندلسيةِ!

غير أنَّ هذه الحجج كلَّها لم تُقنعِ الملكَ الاسبانيَّ، فلم يستجبْ لدعوةِ ابن أختهِ، ورفضَ أنْ يُشَارِكَ في الحمْلةِ التي يُعِدُّها الرون سباستيان، و يتهيأ لقيادتِهَا، وقَد ملكَتْ عليه لُبَّهُ، وأصبحتْ شُغلَهُ الشاغلَ.

أمّا الحدثُ المباشرُ الذي جعلَ الملكَ البرتغالي الشابَّ يندفعُ في مغامراتِهِ، و يُخاطرُ بكلِّ ما يملكُ لتحقيقِ أحلامِهِ الصليبيَّةِ، فهوَ وصولُ السلطانِ السعديِّ المخلوعِ محمدٍ المتوكلِ إلى العاصمةِ البرتغاليةِ، مُسْتغيثاً بملكِها، ومُسْتنصراً به لاستعادةِ

عرشِهِ المفقُودِ، ومُلتزِماً بأنْ يتخلَّى له عن جميعِ الشواطىء وثغورِها، مُكتفياً بداخل البلادِ المغربيَّةِ، وقد شجَّعَتْ خيانةُ المتوكلِ الملكَ البرتغاليَّ على اتخاذِ قرارِهِ بالقيام بالحملةِ الصليبيةِ الكُبرى على المغرب.

ورأى الرون سباستيان أنْ يبذلَ جهداً أخيراً لاقناعِ خالِهِ ملكِ اسبانيا للمشاركةِ في حمْلتِهِ، فوجَّهَ إليه السُّفراء والرسائلَ يُعَدِّدُ فيها العواملَ التي تجعلُ القيامَ بالحملة ضرورةً لا غنى عنها لدولتيهما، وفي جُمْلةِ تلك العواملِ استغاثَةُ السُّلطانِ السعديِّ المخلوعِ واستعدادِهِ لتسليمِ الثغورِ المغربيَّةِ بعد إعادتِهِ إلى عرشه، ولكنَّ فيليبَ الثاني لم يقبلْ دعوةَ ابنِ أختِهِ ثانيةً، وكان المتوكلُ المخلوعُ قد قصد رحابَهُ أولاً، مُسْتغيثاً به، قبل أنْ يلجأ إلى الرون سباستيان، والتمس منه أنْ يمدَّهُ بالمعونةِ العسكريةِ لاستعادة

عرشه، فلم يَجِدْ عنده أذناً صاغِيةً، ولم يرضَ الملكُ الاسبانيُّ أنْ يتورَّطَ في حربٍ ربما دفعتِ الأتراكَ العثمانيين إلى مُهاجمتِهِ من أجلها، انتصاراً للمغاربَةِ، فرفض طلبَ المتوكلِ المخلوعِ، وسفَّهَ رأيَهُ، فلم يَجِدِ المخلوعُ أمامَه غيرَ أنْ يتجِهَ إلى العاصِمَةِ البرتغالية، ويطرحَ عرضَهُ على الملكِ الشابِّ، مُصوِّراً له سوء الحالةِ في المغرب، وسهولةَ القيامِ بالحملة والوصولِ إلى أهدافِها، فاستجاب الدون سباستيان لطلبِهِ، وأمر باتخاذِ الأهبةِ للقيام بالحملة المنتظرة!

أمّا جهودُهُ الكبيرةُ مع خاله ملكِ اسبانيا، لدفعِهِ إلى الاسهام في الحمْلةِ، فقد انتهتْ إلى أنْ يَعِدَهُ بتوجيه سبعةِ آلافٍ من الجنود الاسبانِ والطليانِ والألمانِ، لإعانته، دون أنْ تُشارِكَ الدولةُ الاسبانيةُ رسمياً في الحمْلة، ولهذا لم يخضْ معركةَ وادي

المخازنِ غيرُ ثلاثةِ ملوكٍ: السلطان السعدي عبد الملك، والسلطان المخلوع المتوكل، والملك البرتغالي الرون سباستيان، ومن هنا أطلقَتِ المصادِرُ المسيحيةُ على الوقعةِ اسمَ «معركة الملوك الثلاثة».

الدون سباستيان يُعِدُّ للحملة الحاسمة

كان الرأيُّ الشعبيُّ العام في البرتغال في ذروة حماسَتِهِ للحمْلةِ الصليبية التي يُعدُّها الملكُ الشابُّ الدون سباستيان، وقد استقرّ لدى البرتغاليين إيمانُهُم بالنَّصْرِ، وقُدرتُهُم على تحقيقِهِ على المغاربة بيُسرٍ وسهولَةٍ، «وكان رجالُ الحاشيةِ في القصر الملكيِّ في العاصمةِ البرتغالية ــ كما يقولُ المؤرخُ الفرنسي كاستوني دى فوس ــ يعتبرون الحربَ القادِمَةَ وكأنّها نُزهَةٌ عسكريةٌ، وكانوا يتبجّحون بتعليقِ

الصُّلبانِ قريباً على مساجدِ فاسَ ومراكشَ، وقد أبْدَتِ الكثيراتُ من نساء الطبقَةِ العُليا رغبتَهُنَّ في مرافقة الحمْلةِ، وكأنّهنَّ سيذهبْنَ إلى مهرجان الفروسيةِ لمشاهدَةِ مسابقة الفُرْسانِ، وكان الشاعرُ البرتغاليُّ كاموانس ـــ ويُعدُّ من أنبغِ شعراء البرتغال ومن أشدِّ المحرِّضين على قِتالِ المسلمين واحتلالِ بلادِهِم ـــ يَسْتعِدُّ وهو على فراشِ الموت للتغني ببطولاتِ هؤلاء الصليبيين الجدد الذين باركَهُمُ البابا!» فقد كانتِ الروحُ الصليبيةُ تُثيرُ حماسَةَ الشعبِ البرتغاليِّ وتهيجُ أحقادَهُ على المغاربة المسلمين، وتدفعُ النّاسَ إلى الانخراطِ في جيشِ الحمْلَةِ، وينقلُ الاستاذُ محمدٌ الفاسيُّ عن مصدرٍ مسيحيٍّ آخر صورةً محمومَةً للاستعدادات التي كان الشعبُ البرتغاليُّ يُشارِكُ بها آنذاك «فالفلاحون

كانوا يشترون الحِبالَ لِيقيِّدُوا بها أسراهُمُ المنتظرين، والاشرافُ كانوا يبيعون أراضيهم ليشتروا بها الدروعَ والسروجَ الجميلةَ!».

كانتِ الحماسةُ للحملة الصليبيَّةِ تعمُّ النَّاسَ في البرتغال جميعاً، ولم تكنْ ـــ كما ستزعمُ المصادرُ المسيحية فيما بعدُ عندما تتكشّفُ المعركةُ عن كارثَةِ الهزيمةِ ـــ مقصورةً على الملكِ البرتغاليِّ الشابِّ الدون سباستيان وحدَهُ، ومزاعمُ تلك المصادرِ المتأخِّرةِ مُحاولاتٌ لتحميلِ الملكِ مسؤوليةَ الكارثةِ، وجعلها راجعةً إلى تهوُّرِهِ وعَدَمِ جِدِّيتِهِ في التحضير المناسِبِ للمعركةِ الكُبرى التي ساق أمّتَهُ وجيشَهُ إليها! وفي تلك المزاعِمِ محاولةٌ ماكِرَةٌ لطمسِ البطولاتِ الحربية التي أظهرها المغاربةُ المجاهدون في معركةِ وادي المخازنِ، والقيادة العسكرية الماهرة التي تكشَّفَتْ عنها

عبقريَّةُ عبد الملكِ السعديِّ في تحقيقِ النَّصْرِ وسَحْقِ جيشِ الحمْلَةِ وإبادة معظمه.

ربما كان حول الملكِ البرتغاليِّ قبْلَ الانطلاقِ إلى الحملة عَدَدٌ من ذوي الخبرةِ والشؤون العسكريةِ والتجاربِ الكثيرةِ، ممّن لهمُ اطلاعٌ حَسَنٌ على أحوالِ المغربِ يومذاك، وقد عرفوا أنّ المغربَ بعد مبايعةِ عبدِ الملكِ السعديِّ قد استرجع الأمنَ والقوة واجتاز فترة الاضطرابِ التي عاناها في ظلِّ حُكْمِ المتوكلِ، فراحوا يعارضون مشروعَ الحملةِ و يتخوفون من إخفاقِها، و يُقدّرون أنّ الحالةَ في المغرب هي على خلاف ما يتصوَّرُ ملكُهُمُ الشابُّ، وأنّ الأتراكَ سيهبُّون إلى نجدةِ المغرب إذا رأوا أنّه مهدَّدٌ بالسقوطِ بين أيدي المهاجمين النصارى.. إلخ، إلاّ أنّ هؤلاء العُقلاء الخبراء كان عَدَدُهم ــ كما يقول الاستاذ

محمدٌ الفاسي[1] ـ قليلاً، وكلمتُهُم غيرُ مَسْموعةٍ، فلمّا انتهتِ الحملةُ إلى الكارثة، راحتِ المصادِرُ المسيحيةُ تُغالي في ابراز موقفِهم، للتخفيفِ من أثر الإحساسِ بالعار، بعد الإفراطِ في الزهو الذي كان يغمرُ كلَّ المشاركين في الحمْلةِ العدوانية.

أمّا إعْدادُ الملكِ البرتغالي للحملة فلم يكن مُرتجلاً، وقد شهدنا اهتمامَ الدون سباستيان بها، وقيامَهُ بنفسِهِ بحملةٍ استطلاعيةٍ على بعض الثغورِ المغربيةِ استعداداً للمعركَةِ الفاصِلَةِ التي يستعِدُّ لها، كما شهدنا بعضَ اتصالاتِهِ بخالِهِ الملكِ الاسبانيِّ ليدفعَهُ إلى الإسهام في الحملة الكبرى، وقد بقي الملكُ البرتغاليُّ يهيىء أمَّتَهُ وجيشَهُ للحربِ سنواتٍ يحشدُ الجنودَ، ويتجهزُ بالأسلحةِ والعتاد والقُوّاتِ والبهائم، ويُعِدُّ سفنَ الأسطولِ لنقل الحملةِ

والمشاركةِ في حِصَارِ الثغور البحريةِ المغربيةِ، حتى استوفىٰ كلَّ ما تحتاجُ إليه حملةٌ كبرى يُرادُ منها أنْ تسْحَقَ أمةً عظيمةً، وتقضيَ على دِيْنِها، وتمحوَ حضارتَها!

والحقُّ أنّ الرواياتِ عن عَدَدِ الجنودِ النصارى والسفنِ والمدافعِ والتجهيزاتِ الأخرى المشاركةِ في الحملة الصليبيةِ العداونية تختلفُ اختلافاً كبيراً، فالرواياتُ المسيحيةُ تحاولُ تخفيضَ العَدَدِ إلى حدٍ كبير يدفعُ إلى الشَّكِّ في صحةِ أخبارِها وإهمالها، إذ تجعلُ عَدَدَ البرتغاليين ومساعديهم يتروحُ بين ثلاثةَ عشرَ ألفاً وثلاثين ألفاً، وتجعل عَـدَدَ السفنِ يتراوحُ بين الألفِ والثلاثةَ عشرَ ألفاً، من بينها اثنتا عشرة سفينةً حربية كبيرةً، كما تجعلُ عدد المدافعِ يتراوحُ بين ستة وعشرين وستة وثلاثين مِدْفَعاً يُضاف إلى

ذلك ألف وخمسمائة من الخيل. ولا تستطيعُ الرواياتُ المسيحيَّةُ مع ذلك أنْ تُنكرَ صبغةَ الحملةِ الصليبيَّةَ عندما تتحدثُ عن القوميات النصرانيةِ التي شاركتْ فيها (١٢ ألفاً من البرتغال و٣ آلاف من الطليان و٣ آلاف من الألمان، وعدد كبير (؟) من متطوّعة الاسبان، وبعث البابا صاحِبُ رومة بأربعة آلاف).

أمّا الرواياتُ المغربِيَّةُ فهي أجْدَرُ بالتصديق:

فابنُ القاضي يجعلُ عَدَدَ الجنودِ النصارى مائة وخمسة وعشرين ألفاً، يُضاف إليهم ثلاثمائة من أصحابِ المتوكِّلِ المخلوعِ، مع مائتين من المدافِعِ، وأبو عبدِالله ِالفاسي يُجعلُ عددَهُم ما بين ١٢٠ ألفاً و٨٠ ألف مقاتلٍ ويقول: «إنّ مجموعَهم كان مائةَ ألفٍ وعشرين ألفاً، وأقلُّ ما قيل في عددِهم ثمانون ألفَ

مُقاتلٍ» وذكر الأفرانيُّ أنّه لم يُشارِكْ من النصارى في القِتالِ سوى مائةِ ألفٍ، وبقيَ خمسةٌ وعشرون ألفاً منهم في السُّفُنِ، وهكذا يكون في حكم المؤكدِ أنّ قُرابةَ مائةِ ألفٍ من المقاتلين قد شاركوا في معركة وادي المخازن تحت قيادة الملكِ البرتغاليِّ، مدفوعين بنزْعَةٍ صليبيةٍ حاقِدَةٍ، ومجهّزين بالأسْلِحَةِ الوفيرةِ، والمدافعِ الكثيرةِ، والعتاد والمؤن والخيل، والسفن الحربية ومراكب النقل الكافية.

وأعدَّ الملكُ البرتغاليُّ مع كبار قادته خططَ الحمْلَةِ، وقد أتمّ استعدادَهُ لها، في انتظارِ اليومِ المحدَّدِ للخروجِ بالقواتِ من أشبونة (لشبونة) والعبورِ بها إلى المغرب.

دهاء عبد الملك السعدي
في دبلوماسيته السلمية

كان عبدُ الملكِ السعديُّ، وقد بلغتْهُ أخبارُ الحملةِ التي تستعِدُّ البرتغالُ للزَّحفِ بها على المغرب، على إحَاطةٍ كاملةٍ بنوايا الملكِ البرتغالي الشابِّ وأحلامِهِ العدوانيةِ الصليبيةِ، ولهذا كان يُعِدُّ نفسَه للمواجهة الحاسِمَةِ، وقد بادر منذُ استلامِ مقاليدِ الحُكْمِ في المغرب بعد خلْعِ ابنِ أخيه وطردِهِ، إلى القيام بتلك الاصلاحاتِ الاقتصادِيَّةِ والاداريةِ والعسكرِيَّةِ التي أشرنا إليها، لِيخرجَ بالمغْرِبِ من فترة الضعفِ والاضطرابِ التي انحدَرَ إليها، و يُعيْدَ

إلى المغارِبَةِ شعورَهُم بالوحدةِ والأمنِ والثقةِ، و يقودَ مسيرتَهُم للجِهادِ وتحريرِ الثغور المحتلَّةِ، مُسْتفيداً من الوعي الوطني الذي كانت تبثُّهُ الحركاتُ الدينيةُ في نفوسِ المغاربةِ، وتُعِدُّهم للاستماتَةِ في سبيلِ اللهِ والوطن، والاستشهاد في تحريرِ الثغورِ المغربية وتطهيرِها من وَصْمَةِ الاحتلال الأجنبيِّ وعارِهِ؛ وكانتِ الحركةُ الدينيةُ الجزولية تعملُ دون هوادَةٍ إلى جانب الملكِ السعديِّ الذي يقودُ رَكْبَ الجهادِ، و يتهيأ لخوضِ المعركةِ الفاصلةِ مع جيش الحملة العدوانية الصليبية الزاحفة.

ولكنّ عبدَ الملكِ السعديَّ كان عبقرياً في سياسَتِهِ ودهائِهِ، فأراد أنْ يكشفَ للملأ عُدوانَ البرتغالِ الصريحِ على المغرب، ومطامحَ الملكِ الشابِّ التوسعيةَ والاستعمارِيَّةَ، و يستفيدَ في الوقت نفسِهِ من

المماطَلَةِ، لتأخيرِ المعركةِ، لكي يتاحَ للمغاربَةِ وقتٌ أطولُ لمزيدٍ من الاستعدادِ والتحضيرِ والتجهيزِ لملاقاةِ المغيرين المُعتدين، واستكمالِ أسباب الدفاع لِصَدّ جيوشِهِمُ الزاحفةِ، فبادَرَ إلى توجيه رسالةٍ إلى الوون سباستيان يقولُ له فيها:

«إنّ ما تعتزمُهُ من محاربتي في قعر داري ظلمٌ وتعدٍ غيرُ معقولين، وأنا لا أضمِرُ لك شرّاً، ولم أقم بشيء ضدَّك، فكيف تُبيحُ لنفسِكَ أنْ تُزيلَ لي ما هو حقّي وتُعطيه لشخصٍ آخر، مُقابل وعودٍ خلاّبةٍ لا يستطيعُ أنْ يفيَ لكَ بها ما دُمتُ حياً!

«إنك تأتي لِتطردَني من مملكتي، وإنّك بكلّ ما تملكُ، وبما يوجدُ في ممالكك لن تقدرَ على ذلك، ولا تُظنَّنَ أن الجُبنَ هو الذي يُملي عليَّ ما أقولُهُ لك، فإنْ فعلتَ فإنك تُعرِّضُ نفسَك للهلاكِ، وإنني مستعدٌ

للتفاهم معك، رأساً لرأسٍ، في المحلّ الذي تُريدُه..
وإنني أفعلُ كلَّ هذا سعياً في عَدَمِ هلاكك المحقَّقِ
عندي، ولا يُملي عليَّ هذه العواطف إلاّ محبّتي
للعدل..

«وأزيدُ أنني أقبلُ أنْ نُحاكم معاً لدى محكمتِكَ
التي لا تُزيلُ شيئاً لأحد، ظُلماً وعدواناً، لِتُعطيَهُ
لغيرهِ، وأنا أقبلُ حُكمها مُسْبقاً.. وإني أشهدُ اللهَ على
ما أقول..

«واعلم أنك شابٌّ لا تجربة لك، وأنّ لك في
حاشيتك نُبلاء يُشيرون عليك بآراء فاشلة..».

هذا موجزٌ للرسالةِ الثانية التي بعث بها عبدُ
الملكِ السعديُّ إلى الدون سباستيان، وكان قد بعث
بالأولى قبلها؛ فلم يتلق عن كلتيهما جواباً من الملكِ

البرتغاليِّ، وقد دلّل الملكُ السعديُّ علىٰ حُنكتِهِ السياسِيَّةِ، بتوجيهِ مثلِ هذه الرسائل إلى خصمِهِ قبل المعركة، ليضعَهُ أمامَ مسؤولياتِهِ في حربِهِ العداونيةِ السافِرَةِ على المملكةِ المغربيةِ، وليجعلَ شُركاءه في الحملةِ الصليبيةِ يتخاذلون عن السِّيرِ معه فيها، وفي بعض عباراتِ الرسالةِ ــ كما رأيت ــ إنذارٌ يدلُّ على شجاعَةِ الملكِ السعديِّ، مُقترِنٌ بتواضعٍ للحقِّ وقبول لحكم العدل، يدلُّ على سموٍّ في الروح، كما يدلُّ على دهاء عبدِ الملكِ السعديِّ وبراعتِهِ السياسية!

غيرَ أنَّ رسائلَ عبدِ الملكِ السعديِّ لم يكنْ لها من أثرٍ لدى الملكِ البرتغاليِّ السادرِ في أحلامِهِ الصليبيةِ، والمتلهِّفِ إلى تحقيقِ الفتوحات والأمجاد على حساب الإسْلام ِوالشعوبِ الاسلامية وبلادِها،

فظلَّ يُوالي إتمامَ إعْدادِهِ وتجهيزِهِ للحرب، وهو يحسب أنّ النصرَ الحاسِمَ على المغرب أصبح في مُتناولِ يده!

لقد أراد عبدُ الملكِ السعديُّ أنْ يتفادىٰ برسائِلِهِ إلى الملكِ البرتغاليِّ الحربَ، فإذا أصرَّ هذا عليها ـ وهو ما كان يُنتظر منه لصغره وقلة تجربته ـ انكشف موقفُهُ العدوانيُّ، وقوي موقفُ الملكِ السعديِّ في الميدان الدوْليِّ، وكسب من المماطلة وقتاً لمزيدٍ من التأهُّبِ والاستعداد للمعركةِ الحاسمة، ويُشير الأستاذُ محمدُ الفاسيّ إلى ثناء المؤرخين الأجانبِ ـ الذين كتبوا عن معركةِ الملوكِ الثلاثةِ بموضوعيةٍ ـ على رسائلِ عبدِ الملكِ السعديِّ إلى الدون سباستيان، لأنها دليلٌ على حرصِهِ على السَّلامِ، ورفضِهِ للحرب العدوانِيَّةِ، لا عن ضعفٍ وعجز عن خوضها وصدِّ المعتدين، بلْ عن مَقْدِرَةٍ

وقوةٍ، كما أبانت عنهما النتيجةُ التي أسفرتْ عنها المعركةُ الفاصلة.

وعندما لم تُجْدِ مُحاولاتُ عبدِ الملكِ السعديِّ الدبلوماسِيَّةُ مع الملك البرتغاليِّ، الشاب المغرورِ، لِتفادي الحربِ الصليبيةِ وعدوانِها، أيقن المغربُ أنّه لا بُدّ له من خَوْضِ غمارِ معركةٍ شديدة الهولِ، وبات عليه أنْ يُعِدَّ نفسَه لها بكلِّ ما يستطيعُ من قوة، ليواجه العدوانَ والتحدي، ويُجاهد المُغيرين الغزاة دفاعاً عن وجودِهِ ومقدّساتِهِ كلِّها.

المغرب يستعدّ لمواجهة الحملة الصليبية

كان عبدُ الملكِ السعديُّ في عاصمةِ دولتِهِ بمراكش يُوالي الاستعدادَ لمواجهة الخطرِ الصليبيِّ الزاحف بكلِّ ما يملكُ شعبُهُ من طاقاتٍ دفاعية وعسكرِيَّةٍ، وما يتمتعُ به هو نفسُه من خبراتٍ ومواهبَ في القيادة والقتالِ، وقد صمّم العزمَ على التصدي للمعتادين بجميع الوسائلِ لِقهرِهِم وهزيمتِهِم: وأولُّها الجيشُ النظاميّ المدرَّبُ الذي سهر السنتين الماضيتين من حُكْمِهِ على تكوينِهِ وإعْدادِهِ، على الأساليب العسكرِيَّةِ التركيةِ التي خبرها بنفسِهِ

ووعاها، من حياته في القسطنطينية ومشاركتِهِ في الحمْلَةِ العثمانيةِ على تونسَ، حتى أصبح الجيشُ المغربيُّ يملكُ كفايةً قتالية رائعةً، على أحدثِ أسلوبٍ عصري، وقد زاد عَدَدُ محاربيه على الأربعين ألفاً، وعلى رأسِهم عددٌ من أمهرِ القادة وأشجعهم، والمصادرُ المغربيةُ تذكرُ أسماء خمسةٍ منهم وهم: أبو علي القتوري، والحسينُ العلج الجنوي، ومحمدُ أبو طيبة، وعليُّ بنُ موسى، وأخوه أحمدُ بنُ موسى، وقد أصبح الجيشُ المغربيُّ يمتلكُ أربعةً وثلاثين مِدْفَعاً، وآلافاً كثيرةً من الخيل، وتجهيزاتٍ حربيةً وافرةً، أنفق عبدُ الملكِ عليها من الأموالِ التي تجمَّعتْ في خزائنِ الدولةِ، نتيجةً للاصلاحاتِ الاقتصاديةِ الحكيمة التي أجراها خلال أكثر من سنتين، منذ تسلُّمِهِ الحُكْمَ، وكان عبدُ الملكِ السعديُّ يُعوِّلُ على

سيولِ المجاهدين الذين يتدفّقون للانضمام ِ تحت لوائه، تطوُّعاً للقِتالِ في سبيلِ الله ِ والوطن، من أتباعِ الحركةِ الدينيةِ الجزولية ــ وهم كانوا أغلبيةَ الشعبِ المغربي يومذاك ــ وقد قام شيخُهُم ورئيسُهم أبو المحاسنِ يوسفُ الفاسيُّ بحثِّ الناسِ على التطوعِ والجهادِ، حتى أصبح جيشُ عبدُ الملكِ السعديُّ في معركة وادي المخازن مُقارباً لعددِ جيشِ الغزاة: قرابة مائة ألف من المقاتلين، فيهمُ الجنودُ المنظّمون، وفيهمُ المجاهدون المتطوّعون، وأصبح عددُ الفُرْسانِ في جيشِ السعديين يزيدُ على ثلاثين ألفاً (وبعضُ الرواياتِ المسيحيةِ ترتفعُ بعدد الفرسان المسلمين في معركة وادي المخازن إلى ستين ألفاً) وسنرى أثرَ هذه القواتِ السريعةِ الحركَةِ في تحقيقِ النَّصْرِ العظيم.

إلى جانبِ الجيشِ النظاميِّ المغربي، وما ينضمُ

إليه من أفواجِ المجاهدين المتطوّعين، كان عبدُ الملكِ السعديُّ يستغلُّ دهاءه وتجاربَه وحسنَ فهمِه لنفسيَّةِ الملكِ البرتغالي الشابِّ، لِيستفيدَ من غرورِهِ وقلَّةِ تجربتِهِ وشدة تمسكه بمظاهر الفروسية والفتوةِ والشرفِ، وسنشهدُ أثرَ ذلك كلِّهِ في نجاحِ الملكِ السعديِّ في الكيدِ وإعمالِ الحيلةِ لدفع الدون سباستيان إلى السير نحو الكارثة!

وكانت مدينةُ القصرِ الكبيرِ هي المركزُ الرئيسيُّ في المغرب للحركةِ الجزولية، وقد اختيرَتْ لِقُرْبِها من الثغورِ المغربية التي كان البرتغالُ يُوالون احتلالَهَا، وقد رأى عبدُ الملكِ السعديُّ أنْ يتخِذَ منها لذلك مقراً للقيادة العُليا لتسييرِ العملياتِ الحربيةِ، وطلب من أخيه ونائبِهِ على فاس الأميرِ أحمدَ أنْ يسبقَهُ إلى القصر الكبيرِ على رأس جيوشِهِ من رُماةِ

أهلِ فاس، عندما تحرّك هو نفسُه لمغادرةِ مُراكش على رأسِ جيشِهِ في الطريقِ إلى الشَّمالِ، وكان جيشُهُ طوال الطريقِ، يزدادُ كثرةً، بما ينضمُ إليه من جموعِ الوافدين من المجاهدين المتطوّعين، وكان عبدُ الملكِ السعديُّ يتلقّى وهو في طريقه التقاريرَ التي كان جواسيسُهُ في جيشِ الحملة يبعثون بها إليه، ليزوِّدُوهُ بأخبارِ الدون سباستيان وتحرّكاته..

وقد آن لنا أنْ نعودَ إلى الدون سباستيان وجيشِهِ لنشهدَ عبورَ الحملةِ العدوانية إلى المغرب، وسيرها نحو وادي المخازنِ، لتحقيق أحلامِ الملكِ البرتغاليِّ العدوانيةِ.

الحملة العدوانية: العبور والزحف

غادر جيشُ الحملةِ الكُبرى العاصمةَ البرتغاليةَ يوم ٢٤ من حزيران ١٥٧٨م (بعد منتصف ربيع الثاني ٩٨٦هـ) يَحملُهُ ذلك العددُ الكبيرُ من القواربِ والسفنِ التي قصدت أولاً مرفأ (لاكوس) على بعد مائتي كيلومتر من لشبونة، وهناك أقام الجيشُ أربعةَ أيامٍ، واندسّ إليه بعضُ جواسيسِ الملكِ السعديِّ الذين راحوا يوافونه بأخبارِ الدون سباستيان، وكان عبدُ الملكِ السعديُّ ما يزالُ في مراكش، يُوالي إتمامَ استعداداتِهِ للمعركةِ؛ ثم تحركتِ السفنُ إلى قادس، فوصلت إليها في ٢٩ من

حزيران، وأقامَ الجيشُ فيها أسبوعاً كاملاً، ومن قادس تمَّ عبورُ الحملة إلى مدينةِ طنجة، حيث رست السفن بمينائها في اليومِ الثامنِ من تموز، وكان المتوكّلُ الخائنُ في انتظارِ وصولها هناك، وتابعتِ السفنُ إبحارها إلى ميناء أصيلةَ، وكان المتوكلُ قبل خلْعِهِ قد مكَّنَ البرتغاليين من الاستيلاء عليها، وتخلَّف الدون سباستيان في طنجةَ يوماً، ثم لحق بالجيشِ إلى أصيلةَ في العاشر من تموز ١٥٧٨م، ونزل ذلك الجيشُ الجرارُ إلى البرِ المغربيِّ، وانتشرتْ قطعاتُهُ في اتجاه القصرِ الكبيرِ، حيث تمَّتْ إقامةُ معسكراتِهِ بالفحص، على مسيرةِ يومٍ واحدٍ من القصر، كلُّ هذا والسلطانُ السعديُّ عبدُ الملكِ ما يزالُ في مراكش، واستبطأ الناسُ في القصرِ الكبير وصولَهُ، وعمَّ بعضَهُمُ الخوفُ من مُداهمةِ الجيوشِ

الزاحِفَةِ لهم، وعزم بعضُ أهالي المدينةِ على مغادرتها إلى الجبالِ، ليتحصَّنُوا بها، ولكنّ الشيخَ يوسفَ الفاسي طاف على السُّكَّانِ، وحضَّهُم على الثبات، و بشَّرهم بوصولِ الجيشِ السعديِّ القريب.

و يبدو أنّ المرضَ الذي داهم الملكَ السعديَّ له أثرٌ في تأخُّرِ خروجِهِ من مراكش، وكان قد تخوّف من انقضاضِ جيشِ الحملة على المدنِ والقُرى في شَماليِّ المغرب، فراحَ يكتبُ إلى الدون سباستيان المرةَ تلو المرّةِ، مُسْتثيراً فيه نخوتَهُ الفروسيةَ، وتمسّكَهُ بأخلاقِ الفُرْسانِ وشرَفِهِم، و يقول له.

«ليس من الشجاعَةِ ولا من رُوحِ الفروسِيَّةِ أنْ تنقضّ على سُكّان القُرى والمدنِ التي في طريقك، وهم عُزُلٌ من كلِّ سلاحٍ، دون أنْ تنتظرَ أنْ يُقابلك

أمثالُك من المحاربين، فإنْ كنتَ نصرانياً صادِقاً فتريَّثْ ريثما أقصدُكَ..

«إنّ سطوتَكَ قد ظهرتْ في خروجِكَ من أرضِكَ، وجوازِكَ العدوةَ ــ المضيق ــ فإنْ ثَبَتَّ إلى أنْ نُقدم عليك، فأنتَ نصرانيٌّ حقيقيٌّ شجاع..».

فلمّا قرأ الدون سباستيان كتابَ الملكِ السعديِّ استشارَ رجالهِ في الأمر، وكان المخلوعُ الخائنُ المتوكلُ فيمَنِ استشارَهُ، فأشار على الملكِ البرتغاليِّ بأن يعمدَ دون تريثٍ إلى احتلالِ تطوانَ والعرائشِ والقصرِ الكبيرِ، وأنْ يجمعَ ما فيها من السِّلاحِ، و يتقوّى بما فيها من الذخائرِ، وحذّرَ من أنّ كتابَ عمِّهِ ينطوي على المكيدةِ والحيلة؛ وانضمتْ حاشيةُ الملكِ البرتغاليِّ إلى رأي المتوكّلِ، ونَصَحَتِ الدون

سباستيان بالأخْذِ به، ولكنّ الملكَ الشابَّ رفضَ بشمَمٍ أنْ يُعرِّضَ شرفَ سمعتِهِ إلى وَصْمَةٍ ترفضُها أخلاقُ الفروسِيَّةِ وتقاليدُها، فلم يتحرَّكْ من أصيلة، وقضى بها تسعة عشرَ يوماً، حتى وصل الملكُ السعديُّ بجيوشِهِ إلى القصرِ الكبيرِ، وكان أخوه الأميرُ أحمدُ قد وصل إليها بجيوشٍ فاس قبله، ويؤكِّدُ المؤرخون المغاربةُ أنّ عبدَ الملكِ السعديَّ وصل مريضاً، محمولاً على مِحفَّةٍ، إذ لم يكنْ يستطيعُ التنقُّلَ على فرسِهِ، واجتمع في نواحي القصرِ الكبيرِ بأخيه ورؤساء جيشِهِ وأعيان دولتِهِ وزعماء الحركةِ الجزوليَّةِ، وعلى رأسِهِمُ الشيخُ يوسفُ الفاسيُّ، وراح يتدارسُ معهم الموقفَ، ويُقلِّبُ أوْجُهَ الرأي، ويضعُ الخططَ اللازمةَ، للمعركةِ الفاصِلَةِ القادمة.

وفي المصادرِ الغربيةِ التي درست معركةَ وادي

المخازنِ تساؤلٌ كبيرٌ عن سِرِّ إقامة الملكِ الاسبانيِّ في أصيلة طوال تلك المدة قبل أنْ يتّجِه نحو القصرِ الكبيرِ، وفي استطاعَةِ رسالةِ الملكِ السعديِّ إلى الدون سباستيان أنْ تُجِيْبَ عن ذلك التساؤلِ، ولكن الرواياتِ المسيحيَّةَ لا تذكرُ تلك الرسالةَ، وترى في تأخُّرِ الزحفِ إلى أنْ وصلتِ الجيوشُ السعديةُ غموضاً لا يمكنُ تعليله.

و يقول الأستاذ محمدٌ الفاسيُّ: «إنّ الرواية المغربيةَ تحلُّ هذا الغموضَ.. فإنّ الدون سباستيان كان يرى أنّ شرفَهُ لا يُبيحُ له أنْ يستوليَ على بلادِ عدوِّهِ دونَ قِتالٍ، وهو مَنْ هو شهامةً وعلوَّ نفسٍ شمماً، ولعلّ الدون سباستيان كتم خبرَ الرسالةِ عن خواصِّهِ حتى لا يُسفّهوا رأيَهُ!».

وهكذا نجحتْ حيلةُ عبدِ الملكِ السعديِّ في

تأخيرِ الزَّحْفِ البرتغالي، لِتيسيرِ الوقتِ الكافي أمامَهُ لإِكمالِ استعداداتِهِ، وحَشْدِ الجنودِ وجَمْعِ المقاتلين من سائرِ أنحاء المغرب، وكان السلطانُ العظيمُ يكتمُ أوجاعَ مرضِهِ، ويُداري آلامَهُ، كيلا يؤثِّرَ في معنوياتِ مَنْ حوله من القادةِ ورجالِ الدولة، إلى أنْ حطَّ الرحالَ في القصرِ الكبير.

ومن القصرِ الكبير كتب إلى الرون سباستيان في أصيلة رسالةً أخرى، فيها من الحيلةِ والمكر ما يشهَدُ بعبقريته ودهائِهِ، وقال له فيها:

ــ «إني سرتُ ستَّ عشْرةَ مرحلةً لملاقاتِكَ، فهلاَّ تسير أنت مرحلةً واحدةً لملاقاتي!».

وكان مشيرو الملكِ البرتغاليِّ ــ وفيهمُ المتوكلُ المخلوعُ ــ ينصحون له بالبقاء في أصيلة، حتى تصِلَ

الجيوشُ السعديةُ إليه، فيتلقّاها منهوكَةَ القوى، بدلاً من أنْ يسيرَ هو بجيوشِهِ إليها، ولكنّ الرون سباستيان أصرَّ على رأيه، وسقط في الشبكَةِ التي نصبها له الملكُ السعديُّ بدهائهِ العظيمِ.

مكيدة عبد الملك السعدي
في اختيار ميدان المعركة

نجح عبدُ الملكِ السعديُّ في أنْ يستجرَّ خصمَهُ إلى الحرب في الميدان الذي اختارَه بنفسِهِ، في سهلٍ مثلث منبسطٍ من الأرض، تكْثُرُ فيه الأنهارُ، وتحيطُ به من ثلاثِ جهاتٍ: إذ وادي لوكوس الذي ينصبُّ في العرائشِ يمدُّهُ من الضفّةِ اليُمنىٰ وادي ريسانة ووادي المخازن، (والوادي هنا معناه النهر)، ووادي المخازن يمدُّهُ من الضفَّةِ اليُسرى وادي وارور، ففي هذا المثلَّثِ المحاطِ بالماء من كلِّ جانبٍ، في ناحية من مدينةِ القصرِ الكبيرِ، يمكنُ حصرُ الجيوشِ

الغازيةِ، بحيث إذا تمَّ نَصْرُ المسلمين عليها، وأرادت أنْ تركنَ إلى الفِرار، فإنها لن تجدَ لها مخرجاً، وإذا تمكَّنَتْ من عبورِ الماء سالمةً فإنّها ستجدُ أمامها البحرَ من ناحيةِ العرائش، وهي بيدِ المسلمين، ولا مَدَدَ للهاربين من قِبَلِهَا، ولا سُفُنَ لهم في مرساها تنقلُهُم وتُنقِذُهُم من الوقوعِ في الأسر، وهذا ما كان الملكُ السعديُّ يتمناه، وهو ما كان مستشارو الوون سباستيان يخشونه ويحذِّرونَ الملكَ منه، فلو بقيَ في أصيلةَ، ووقعَتِ الهزيمةُ لجاء المددُ من السفنِ البرتغاليةِ الراسيةِ فيها، أو نجا الهاربون إليها من أسْرِ المسلمين، ولكنّ الملكَ البرتغاليَّ في غرورِهِ وقلَّةِ تجاربِهِ ما كان يُفكِّرُ في إمكانية وقوعِ الهزيمةِ، وكان يتشوَّقُ إلى الحربِ في ميدانٍ فسيحٍ، يستطيعُ أنْ يصولُ فيه الفارِسُ ويجولَ، ولهذا رحّب باقتراح الملكِ

السعديِّ، واستجاب إليه، ورفض الاصغاء إلى نُصحِ حاشيتِهِ ومُشيريه، وأمر الجيشَ بالرحيل، فتحركتْ طلائعُهُ من أصيلة في ٢٩ من تموز نحو القصرِ الكبيرِ، وقد قطع جيشُ الحمْلةِ العرمرمِ المسافةَ بين أصيلةَ وميدانِ المعركة في وادي المخازنِ على خمسِ مراحِلَ: ففي اليومِ الأولِ عسكرَ الجيشُ بوادي الرّحىٰ، وفي مساء اليومِ الثاني نزل بالمنارةِ وأقام فيها يومين، ومساء يوم الجمعة في فاتح شهر آب ١٥٧٨ (٢٧ من جمادي الأولى ٩٨٦هـ) نزل الجيشُ في ثلاثاء ريسانة، وفي اليوم التالي وصل إلى محلٍّ يُدْعى برقين، على سفح هضاب من الجهةِ اليُمنى لوادي المخازن، ومن أعالي تلك الهضَابِ المُشرفةِ شاهد البرتغاليون طلائعَ جيشِ المغاربةِ المسلمين، وهي تتجِهُ نحوهم، في سهولِ القصرِ

الكبير، ما بين وادي لوكوس ووادي وارور!

وصباح يوم الأحد في الثالثِ من آب أمَرَ الدون سباستيان جيشَ الحمْلَةِ باجتياز وادي الخازن، فعبَرَتِ الجموعُ الحاشِدَةُ فوق قَنْطَرَةِ الوادي الجسر، لتُعسكرَ على ضفةِ الوادي اليُسرى، في المثلث الذي تتألفُ زاويتُهُ الغربيةُ من التقاء النهرين: وادي المخازن ووادي وارور (انظر خريطة ميدان القتال) وكانتِ الجيوشُ السعديةُ قد وصلتْ أيضاً إلى هذا المثلَّثِ أيضاً، ونصبتْ خيامَها، واتخذَتْ مواضعَها، وراح الفريقان يستعِدَّانِ لخوضِ المعركةِ الكبرى في صبيحة اليوم التالي.

وقائع المعركة الفاصلة

في ليلة المعركةِ لمْ يهدأ التحضيرُ لها في معسكرِ المسلمين، وكان عبدُ الملكِ السعديُّ مع أخيه الأمير أحمد وقوّاده يتدارسون الخطّةَ التي انتهوا إلى اقرارِها، ويناقشون المهمّاتِ والعمليات الحربيّةَ لتطبيقها، وفي جنحِ الليلِ أمرَ عبدُ الملكِ أخاه بالسَّيْرِ على رأس أربعةِ آلافٍ من الجنود لنسفِ قنطرةِ وادي المخازنِ، وهي الجسرُ الوحيدُ على ذلك النهرِ، فتوجَّه الأميرُ أحمدُ مع كتيبةٍ من الفُرْسانِ، وقام بهَدْمِ القَنْطرةِ، وعاد إلى المعسكرِ بعد انجاز مهمَّتِهِ، وبها تمَّ حصارُ جيشِ الحمْلَةِ، ولم يَعُدْ له منفذٌ إذا تقهقَرَتْ قوّاتُهُ،

ولم يشعرْ معسكرُ النصارىٰ بما جرى، فقد كان الدون سباستيان وأركانُ حربِهِ يُصدِرونَ التوجيهاتِ الأخيرةَ تطبيقاً للخطط التي رسموها لمعركةِ الصبحِ القريبِ.

وفي صبيحة الأثنين (٣٠ من جمادي الثانية ٩٨٦هـ/٤ من آب ١٥٧٨م) أطلَّ أخيراً ذلك اليومُ التاريخيُّ المنتظَـرُ على مَيْدانِ المعركةِ الفسيح، وقد تجمَّعَتْ فيه الفئتان، واتخذتْ كلُّ فئةٍ منهما مواضعها، في مُقابلةِ الفئةِ الأخرى: فأمّا الجيشُ الاسلامي المغربيُّ فقد اصطفَّ على صورةِ هلالٍ، قام في وسطه مضربُ القائدِ العامِّ عبدِ الملكِ السعديِّ، وكان البطلُ العظيمُ على مِحفَّةِ مرضِهِ، وقد بلغ المرضُ منه مبلَغَهُ، ولكنّه كان يتجلَّدُ و يتماسَكُ، لِيقوِّيَ عزيمةَ رجالِهِ، وكان عقلُهُ المتوهّجُ

يوالي التفكيرَ والتدبيرَ، ويُصدرُ التوجيهات والأوامرَ، وإنْ عجز جسمُهُ المتداعي عن العملِ الجسمانيِّ وعند رأسيِ الهلالِ، وهما الجناحان اللذان يؤلفان ميمنةَ الجيشِ وميسرتَهُ، اتخذتْ كتائبُ الفُرْسانِ مواقعَها، أمّا المدافعُ فنُصِبَتْ في المقدّمَةِ ومن خلفِها قطعاتُ المشاةِ..

وأمّا الجيشُ المسيحيُّ فقد اصطفَّتْ قواتُهُ على شكل مُربّعٍ: جُعلت في مقدّمتِهِ جماعةُ الأفّاقين البرتغاليين، ــ وهم جماعةٌ من أوباش النّاسِ المغامرين المتشرّدين، والاستاذ محمدٌ الفاسي يشبّهُهُم بالفريقِ الأجنبيِّ الذي كان في الجيشِ الفرنسي أيام الاستعمارِ ــ واصطف المحاربون الألمانُ في اليمين، والاسبانُ والطليانُ في اليسار، واتخذَتِ الخيّالةُ الفرسانُ مواضعَها في الجناحين، وكان عددُهم أقلَّ

من المشاةِ، وانضمَّ إليهم أتباعُ الملكِ السعديِّ المتوكِّلِ المخلوعِ، وهم شرذمةٌ تُقدَّرُ ما بين الثلاثمائة والستمائة، وكان الدون سباستيان على رأسِ الفُرْسانِ في الجناحِ الأيسرِ، أمّا الوسطُ فكان خاصاً بالرُّهبانِ والقُسسِ، إلى جانب عددٍ من النساء، وهُنّ — فيما يذكر الاستاذ محمد الفاسي — من البغايا «إذ كان مع الجيشِ المسيحيِّ عددٌ كبيرٌ منهن على عادتهم في حروبهم!».

وبعد أنْ أدّى المغاربةُ المسلمون صلاةَ الفجرِ، وابتهلوا إلى اللهِ أنْ يمنَحَهُمُ النصرَ، صدر أمرُ الملكِ السعديِّ لجيشِهِ بإطلاقِ النار، وفي الوقتِ نفسِهِ أطلق المسيحيون نيرانَ مدافِعِهِم، وبدأتِ المعركةُ..

بعد التمهيدِ بتبادُلِ نيرانِ المدفعية بدأتْ جماعةُ الأفّاقين في مقدّمةِ الجيشِ المسيحيِّ الزحفَ، بهجومٍ

كاسحٍ على الجناحِ الأ يسرِ للمسلمين، وارتمت بثقلها عليه، فأصاب المسلمين المقاتلين فيه ذُهولٌ وارتباكٌ، وتضعضَعَتْ صفوفُهُم، وتزحزحوا عن مصافِّهِم، وكان الشيخُ المجاهِدُ أبو المحاسنِ يوسفُ الفاسيُّ رئيسُ الطريقةِ الجزولية في ذلك الجناحِ، فثبتَ وصمدَ، وصمد معه مَنْ حَوْلَهُ، ولكنّ الهجومَ النصرانيَّ كان شديداً، وكانتِ الضرباتُ التي يسدِّدُها المحاربون النصارى قاصِمَةً ومتلاحِقَةً، حتى ألحقَتِ الوَهَنَ في ميسرةِ الجيش الاسلاميِّ، وكان عبدُ الملكِ السعديُّ يراقِبُ ــ وهو على مِحفَّتِهِ ــ تطوّر الموقفِ، وخشي أنْ يُسفِرَ الهجومُ الصاعِقُ على الجناحِ الأ يسرِ عن انكسارِهِ، فلم يتمالَكِ البطلُ نفسَهُ، وارتمى عن مِحفَّتِهِ، واستلَّ سيفَهُ، فأسرعَتِ الحاشيةُ تصدُّهُ خوفاً عليه، ولكنّه شقّ الطريقَ بسيفِهِ

إلى الجناحِ الأيسرِ، وانقضَّ كالنَّسْرِ على المهاجمين، وشهد المحاربون المسلمون حميَّةَ الملكِ السعديِّ، واستهانَتَهِ بالموتِ، وانقضاضَهُ على الأعداء بنفسِهِ، فاشتدَّتْ حماسةُ القومِ، وأقبلوا على الشَّهادَةِ، وارتدَّ مَنْ تراجع ونكص، وتلاحم الفريقانِ في حربِ إبادةٍ، كلُّ فريقٍ يُقاتِلُ باستماتَةٍ، ويُصرُّ على سَحْقِ عدوِّهِ والنَّصْرِ عليه، ولا يتقَهْقَرُ أمامَ رحى المنيةِ، وقد راحتْ تطحنُ الأرواحَ، وحميَ الوطيسُ، واسودَّ الجوُّ بما تُثيرُهُ الجيادُ من نَقْعٍ (غبار)، وما تنشرُهُ المدافِعُ من دُخانٍ، وعندما اطمأن عبدُ الملكِ السعديُّ إلى ثباتِ ميسَرَةِ جيشِهِ، وإخفاقِ هجومِ النصارى عليها، عاد النَّسْرُ المهيضُ الجناحِ إلى مِحَفَّةِ مرضِهِ، وهو في ذروةِ الانهاكِ والإجهادِ، لِيلفظَ أنفاسَهُ الطاهِرَةَ، وقد وضع اصبعَهُ على فمِهِ، مُوصياً

بذلك خادمَه الحاجبَ الأمينَ رضوان، بكتمانِ خبرِ موتِه، كيلا يتسرَّبَ الوَهَنُ إلى نفوسِ المسلمين، وهم في قلبِ معركتِهِمُ الكُبرى مع عدوِّهِمُ المغير الذي يُريدُ إبادتَهُم وتدميرَهُم، وهكذا وافى البطلَ العظيمَ، والقائدَ العبقريَّ الشجاعَ، أجلُه إثر هجمَتِهِ البطوليةِ التي ردّ بها إلى المسلمين ثِقَتَهُم بذاتِهِم، وضرب لهم بنفسِهِ المثلَ في الثباتِ والصمود والتضحيةِ، فأنقذ بذلك المعركةَ وهي في بدايتها من أنْ تتطور عملياتُها ضِدَّ المسلمين، واستمات المغاربةُ إثر ذلك، وصبروا صبرَ المؤمنين المخلصين، ولم يشعرْ أحدٌ في مُعَسْكَرِ المسلمين بوفاةِ القائدِ العامِّ، فظلوا يُتابعون المعركةَ، وقد اشتدَّتْ ضراوتها، وسالتِ الدماء أنهاراً، وَاسْتُشْهِدَ من المسلمين المجاهدين الألوفُ، حتى أدركَ النصارى المُعتدون عُقْمَ

محاولاتِهم لتدمير مقاومةِ المغاربةِ، وزعزعةِ صفوفِهمُ المتراصَّةِ، وبدأ اليأسُ من تحقيقِ الغَلَبَةِ على المسلمين يُداهِمُ قلوبَهُم، ويُضعفُ معنوياتِهم، كُلُّ ذلك والعملياتُ الحربيةُ تسيرُ في المعسكر الاسلاميِّ على خيرِ حالٍ، والخادم الأمين الثقةُ رضوانُ يوالي الدخولَ والخروجَ من خيمةِ السلطانِ، لِيُعطيَ الأوامرَ والتوجيهاتِ باسمِ الملكِ السعديِّ، مُتظاهراً بأنّه ينقلُ رغباتِهِ إلى القوادِوالأعوانِ، ويحضُّ رؤساء المجاهدين على الاستماتَةِ وبذل أقصى الطاقة للفوز بالنصر، ثم يعودُ إلى المِحَفَّةِ وقد رَقَدَ عليها البطلُ الشهيد الفقيدُ، راضياً قريرَ العين، واثقاً من نصرِ اللهِ لجنده المؤمنين الصادقين..

وكان لا بُدّ للخادم الأمينِ رضوان من إعلامِ الأميرِ أحمدَ أخي عبدِ الملكِ بوفاتِهِ، فكتمها، وتُوبِعَتِ

المعركةُ، وهي في أوجِ توقُّدِ نارِها، واضطرامِ سعيرِها، والأوامرُ إلى القادة المسلمين تصدرُ بلسان الخادمِ رضوان:

ـ أيُّها المجاهدون، إنّ السلطانَ يأمرُكم بالتقدُّمِ ولم يشك أحدٌ بالأمرِ، فقد كان رضوانُ ثقةً مأموناً، وحاجباً مُقرَّباً من السُّلطانِ السعديِّ لشدة إخلاصِهِ له، وكان المسلمون بعد صبرِهم واستماتتِهم واستشهاد الألوف من أبطالهم قد بدأوا يتنسَّمون رياحَ النَّصرِ، وكانتْ خيلُهم أكثرَ من خيلِ أعدائِهم، وقد أفادتهم هذه القواتُ السريعةُ الحركةِ في التنقُّلِ والكرِّ والمطاردةِ، حتى ركبوا ظهورَ أعدائِهم، كما كانتِ المدفعيَّةُ المغربيةُ أرقى من مِدْفَعِيَّةِ خصومِهم، وظهر أثرُ التدريبِ والتنظيمِ اللذين كان الجيشُ المغربي يُواليهما بإشرافِ عبدِ

الملكِ السعديِّ نفسِه، لسنتين قبْلَ المعركةِ، كما ظهر أثرُ القيادَةِ العبقريَّةِ الحكيمَةِ التي أحكمَتْ رسمَ الخطَّةِ، و يسَّرَتْ كلَّ السُّبلِ لتنفيذِ عملياتِها، وقد ساعد ترتيبُ الجيشِ الاسلامي في الميدان بذلك الشكلِ الهلاليِّ على إنزالِ الضرباتِ المبيدَةِ القاصِمَةِ بالأعداء، إذ كان الجناحانِ في رأسى الهلال يتقاربان و يتجمّعان، و يلتفّان حول المقاتلين من النصارى، فيسحَقَانِ ما يَقَعُ بينهما سَحْقاً، و بذلك عمَّ القتلُ، و بدأ النصارى يُحسُّون الوَهَنَ، وقد راح المسلمون يضيِّقُون عليهِمُ الخِناقَ، وشرع النصارى يتقهقرون وقد أيقنوا بتفوُّقِ المسلمين، ثم بدأوا ينهزمون، وخَيْلُ المسلمين تُحيطُ بهم، والسيوفُ تحصدُ هاماتِهِم، وعمَّتِ الهزيمةُ جيشَ الحملةِ العدوانيةِ، ودبَّ الذعرُ والرعبُ في نفوسِ أفرادِهِ

وقطعاته، فأخذوا يولُّونَ الأدبارَ، و يلوذون بالفرارِ، ولاتَ حينَ فرار، فعندما أشرفوا على وادي المخازنِ، وأرادوا أنْ يعبروا النهرَ ناجين من مطاردَةِ خيلِ المسلمين لهم، لم يجدوا للقنطـَرَةِ التي عبروا عليها قبل يومٍ واحد أثراً، فأسقط في أيديهم، ونظروا خَلْفَهُم فوجدوا مُطارِدِيهم في أثرهم، يقتلون منهم و يأسرون، فآثر كثيرٌ منهم أنْ يُلقوا بأنفُسِهِم في مياه النهرِ، يُحاوِلون عبورَهُ سِباحَةً إلى الضفةِ الأخرى، ولكنّ مياهَ النهرِ وتيّاراتِهِ لم تساعدهم على العَوْمِ، فلقي الهاربون حَتْفَهُم فيه غرقاً، وأخذتْ آلافُ الجثثِ تطوف على سطحِ الماء.

أمّا الـون سباستيان فالمؤرخون يؤكدون أنّه قاتَلَ بشجاعةٍ مُنْقَطِعَةِ النظيرِ، قبل أنْ يسقط قتيلاً مُضرَّجاً بدمائِهِ، وقد تساقط مِن حولِهِ مئاتٌ من

أنصارِهِ وأتباعِهِ والمخلصين من حاشيته، وبعض المصادِرِ تذكر أنّه لاقى حتفَهُ غريقاً في مياهِ الوادي؛ وأمّا المتوكّلُ السعديُّ الخائنُ، فقد لاذ بالفرارِ عندما أيقَنَ بهزيمةِ النصارى، واتجه نحو الشَّمالِ، فوقع في النهر غريقاً وشوهِدَتْ جُثَّتُهُ بعد المعركةِ طافيةً، فنُقِلَتْ إلى خباء الملكِ السعديِّ الجديدِ السلطانِ أحمدَ المنصورِ ـ أخي عبد الملك ـ فأمر بسلخ الجثةِ وحشوها تبناً، ليُطاف بها في أرجاء المملكة المغربية، جزاء خيانتِهِ لوطنِهِ ودينه وليكون عبرة لمن يعتبر، ومنذئذ أصبح اسم المتوكل (المسلوخ) في المصادرِ التاريخيةِ المغربيةِ، وهكذا انتهتْ معركةُ وادي المخازنِ بموت ثلاثة ملوكٍ فيها:

ـ الملك الشهيد عبد الملك السعدي.

ـ ملك البرتغال الدون سباستيان.

ـ الملك المخلوع الخائن المتوكل (المسلوخ).

ومن هنا جاء تسميةُ الوقعةِ في المصادرِ الأوربية بمعركةِ الملوكِ الثلاثةِ كما كنا أشرنا إلى ذلك من قبلُ.

.

وهكذا انتهتِ المعركةُ في آخر النهارِ بإبادةٍ كاملةٍ لجيش الحملةِ العدوانية، أو شبهِ كاملةٍ إنْ شئنا الدقةَ، إذ لم يُفلت من البرتغاليين ومن معهم من الصليبيين أحدٌ تقريباً، وانتهى الجيشُ الصليبيُّ إلى الاستئصالِ: غرقاً وقتلاً وأسراً، فمَنْ لم يُقْتَلْ في حومةِ الوغى لقِيَ مصرعَه غرقاً، وقد كان الغرقُ نصيبَ أكثرِهم، ومن بقِيَ على قيدِ الحياةِ فقد وقعَ في أسرِ المسلمين، و يقّدرُ الأستاذ محمد الفاسيُّ عددَ الأسرى بنحو أربعةَ عشرَ ألفاً، وعلى هذا التقديرِ

يكونُ عددُ القتلى والغرقى فوق الثمانين ألفاً، وتلك كارثةٌ كبرى على البرتغالِ والنصرانيةِ، وهي في الوقت نفسِهِ نصرٌ حاسمٌ عظيمٌ للمغاربةِ والاسلامِ، إذ كان ظفرُهم في معركةِ وادي المخـــازنِ ظفراً لا كفاء له ـــ لا مثيل له ـــ، فكانوا يذبحون أعداءهم «مثل الكباش»، وحصل المسلمون على غنائمَ لا تُحصى، ولم يكنْ قطُّ مثلها في المغرب، إذ لم يسبق للنصارى أنْ داهموا المغربَ بمثلِ التجهيزاتِ والأعتدة التي تهيأت لجيشِ هذه الحملةِ العدوانيةِ الصليبيةِ، وقد غنم المسلمون جميعَ تلك التجهيزات والأمتعة، وانتهبوها انتهاباً، لأنّ غنائمَ المعركةِ لم تُجمع ولم تُقسّم على المجاهدين حسب تعاليم الشريعة، فإذاعةُ وفاةِ السلطانِ السعديِّ إثر إعلانِ النصرِ، وانشغالُ خليفتِهِ السلطانِ الجديدِ أحمدَ المنصورِ السعديِّ بجمع

الكلمة وإقرارِ البيعةِ له، كل ذلك لم يترك للمسؤولِ الجديدِ فرصةً للاهتمام بأمرِ الغنائمِ، وأمّا افتداء آلافِ الأسرى النصارى ــ وبخاصّة مَنْ كان منهم مِن النبلاء والأشرافِ ــ فقد حَمَلَ إلى خزينةِ الدولةِ السعدية أموالاً لا حصرَ لها، فانهال على المنصورِ ذهبُ الفداء، حتى لُقِّب (بالمنصور الذهبي) لذلك، في زعم بعضِ المؤرخين، لأنّهم يرون أنّ ما كسبَهُ من الذهب هنا أكثر مما جلبه معه من الذهب بعد فتحِ السودان!.

أمّا جُثةُ الملكِ الشابِّ المتهوِّرِ الدون سباستيان، فقد نُقِلَتْ أولاً إلى مدينةِ فاس، وكان البرتغاليون يفاوضون بشأن افتدائها بالمالِ الكثير، «ولكنّ شهامةَ المنصورِ السعدي أبتْ عليه ــ فيما يقول الاستاذ محمدٌ الفاسي[*] ــ أنْ يقبضَ المالَ مقابل جثة

هالك»، وعرض على البرتغاليين أنْ يسلمهم إياها دون مُقابلٍ، وقد تمَّ نقلُها إلى القصرِ الكبيرِ، ودفنت فيه، ثم نُقِلَتْ إلى سبتة، ومن بعد ذلك إلى البرتغال، حيث أشلاؤها في أحَدِ أديرة العاصِمَةِ البرتغالية.

خاتمة: نظرة تحليلية

كان المغاربةُ يدركون جيداً أهميةَ المعركةِ التي هزموا فيها جيشَ الحملةِ العدوانيةِ وسحقوه، فهي واحِدَةٌ من المعاركِ الحاسمةِ في تاريخِ العروبة والإسْلامِ، وقد حفظ انتصارُهُمُ العظيمُ فيها عروبةَ الشَّمالِ الافريقي وإسْلامَهُ، ولو لم يسحقوا جحافلَ الغزاةِ المغيرين و يقضوا على مطامِحِهِم وأحلامِهِمُ الصليبيةِ، لانْحَسَرَ الإسلامُ عن ذلك الجناحِ الغربي من العالِمِ العربيِّ، وسقط تحت الاحتلالِ البرتغالي المسيحيِّ، ولهذا نجدُ المؤرخين المغاربةَ يشبهون النصرَ

في وادي المخازنِ بنصرِ المسلمين في معركةِ بَدْرٍ الكبرى، كما فعل المؤرخُ ابنُ القاضي في كتابه (المُنتقىٰ المقصور على مآثر الخليفة المنصور) وقد تبعهم في ذلك الشعراء المغاربةُ، ومنهم داودُ بنُ عبدِ المنعِمِ الدُّغوغي الذي وصفَ المعركةَ وغرقَ الدون سيباستيان في نهايتها، ثم شبهها بيومِ بَدْرٍ وحُنين فقال:

وسِـيبَـسْطِـيـان ُكـفّـنـتـهُ مـيـاهُـهُ
زيمـاً، ومـاء النهـر أفـظـعُ كـافِـنِ
فـذلـك يـومٌ مـثـلُ بـدرٍ وصِـنْـوِه
حُـنـيـنٍ بـأيـدي المـؤمـنين المـيـامِـن

والحقُّ أنّ انتصارَ المغاربةِ في وادي المخازنِ من حيثُ نتائجُهُ الكبيرةُ، مثلُ نصرِ المؤمنين الأوائل على الشرْكِ في معركةِ بدرٍ، لأنّ معركةَ وادي المخازنِ

أوقفتْ الموجةَ الصليبية التي أرادتْ أنْ تكتسح العالمَ الاسلامي، وحققتْ للاسلامِ صمودَه في وجهِ المطامع الأوربيةِ، وضمنتِ للعروبة والاسلامِ وجودهما في الطرفِ الأقصى من المغربِ العربيِّ.

ولهذا كلِّهِ كان للنصرِ الاسلامي الحاسمِ في معركة وادي المخازنِ موجةُ فرحٍ طاغيةٌ عمَّتِ العالمَ الاسلاميَّ كلَّهُ، وقد أسرع الملكُ السعديُّ الجديدُ بعد مبايعتِهِ إلى إبلاغِ الممالكِ الاسلاميةِ خبرَ النصرِ، فأرسل إلى ملوكها كُتباً تزفُّ إليهم البشرىٰ العظيمة بالفتحِ الجليلِ، وتلقَّىٰ الأتراكُ العثمانيون بمزيدٍ من الرضى والابتهاجِ رسالةَ الملكِ المغربيِّ، لأنّ انتصارَ السعديين على النصارى عزّزَ جانِبَ الدولةِ العثمانية، بسبب التضامُنِ الاسلاميِّ، وقد اعتبر الأوربيون نصرَ المغاربةِ نصراً عاماً للمسلمين في

كلِّ مكانٍ، وكانت مكاسبُ المغربِ بعد ظفره الحاسمِ كبيرةً في كلِّ مجالٍ: فقد أعاد النصرُ للشعب المغربي ثقتَهُ بنفسِهِ وبقدرته على تدميرِ كلِّ الحملاتِ التي أصبحت تنقضُّ عليه، بعد طردِ المسلمين من شبهِ الجزيرةِ الايبيرية، وتهيؤ الاسبانِ والبرتغالِ لمهاجمة المسلمين في المغرب، «لملاحقة الوحش إلى وكره، ولضربِ الاسلامِ من ظهرِهِ» ولتحقيقِ المطامحِ الصَّليبيةِ التوسعيةِ على حِسَابِ الدِّيارِ الاسلاميةِ! فبالنصرِ الساحِقِ المؤزّر في معركةِ وادي المخازنِ اطمأن المغربُ على مصيره، واستقبل تحت حُكْمِ المنصورِ السعديِّ فترة من النهضةِ والازدهارِ السياسيِّ والاقتصادي والثقافي، واغتنَتِ الدولةُ بما انصَبَّ عليها من أموالٍ لافتداء الألوفِ من الأسرى، من أعيان البرتغال، وعمَّ الرخاء بانتعاشِ التجارةِ والصناعَةِ، وبرزت حركةٌ عمرانية تشهدُ مآثرُها

الباقيةُ إلى اليوم برقيِّ الفنِ المغربي في ظلِّ السعديين، وأبرزها تلك المنشآت العمرانية التي ما تزال تفتن ألبابَ المشاهدين حتى اليوم في مراكش.

وأدركَ الأتراكُ العثمانيون بعد معركةِ وادي المخازنِ أنّ المغاربةَ قادرون على الصمود في وَجْهِ الحملاتِ النصرانية، والغاراتِ الصليبيةِ، وأَنَّهم في الوقت نفسِهِ حريصون على استقلالِهِمُ السياسيِّ، وتمسّكهم بِحُكْمِهِمُ الذاتي، فلم يحاولوا بعد معركةِ وادي المخازنِ مَدَّ سيطرتِهِم على المغرب، واحترموا استقلالَهُ، وبذلك بقيَ المغربُ الأقصى البلدَ العربيَّ الوحيدَ الذي لم يشمله الحكمُ العثمانيُّ، ولم يخضع لنفوذِهِ، ولهذا ظلَّتِ الأصالةُ العربيةُ في جميع المجالات حيّةً في المغرب: في مُدُنِهِ ومبانيه وحياة أهاليه في مطعمهم ومأكلهم وملبسهم، وعاداتِهِمُ

الاجتماعيةِ وتقاليدهم؛ كما احتفظَتِ اللغةُ العربيةُ في المغرب بكلِّ مقومات صفائها، ولم تشُبْها العُجمةُ والركاكةُ خلال القرونِ التي كانت لغتنا في المشرق، وفي البلاد التي جارت عليها فيها اللغةُ التركيةُ، ترزحُ تحت وطأتها فيها، وهذا ما يلاحظه العربيُّ المشرقيُّ اليوم عندما يُسْعَدُ بزيارةِ المغرب، و يُخالط اخوتنا الأشقّاء فيه.

كلُّ هذا يؤكِّدُ أنَّ نصرَ المغاربةِ في معركةِ وادي المخازنِ كبيرُ الأهمية وبالغُ الخطورةِ، في تاريخهم والتاريخ الاسلاميِّ بعامَّةٍ، أمّا أثرُ النصرِ الساحِقِ في عدوّهم فكان خطيراً حقاً، وقد عمَّ الحزنُ للهزيمة الصليبية جميعَ الممالكِ النصرانية، وكانتْ نتيجةُ المعركةِ كارثةً تاريخيةً بالنسبة للبرتغال، ولم يكنِ الشعبُ البرتغالي يحسب حِسَاباً لها، فنزلَتْ عليه

أنباء الكارثةِ كالصَّاعِقَةِ، فأصابَهُ الذهولُ والجزعُ من أجلها، ووجد البرتغاليون أنفسَهُم وقد كانت مملكتهم يومذاك تمتلِكُ أعظمَ سُلطةٍ في العالم المسيحيِّ، فإذا هي تفقدُ بين عشيةٍ وضحاها مَلِكَها وجيشَها وعظمتَها، ثم إذا هي بعد حينٍ تفقدُ حريتها واستقلالها، حين استولَتْ عليها اسبانيا، ذلك أنّ الدون سباستيان لم يترك له وارثاً لعرشِهِ، فورثه خالُهُ فيليب الثاني ملكُ اسبانيا، واستولى على ممتلكاته، ومنها ثغرُسبتةَ المغربيُّ الذي انتقل إلى الحكم الاسبانيِّ من ذلك اليوم، وما يزالُ إلى الآن تحت الاحتلالِ الاسبانيِّ، في انتظار أنْ تُسفرَ المفاوضاتُ السلميةُ المنتظرة بين اسبانيا والمغرب عن تحرير الأجزاء الباقيةِ من المغرب تحت الحكمِ الاسباني، وعودتها إلى أصحابها الشرعيين، ولا بُدّ من عودةِ

الحقِ المغصوبِ إلى أهلِهِ مهما طال المدى!

إنّ إبادةَ الجيشِ البرتغالي المسيحيِّ في معركةِ وادي المخازنِ أصاب الأحلامَ الصليبيةَ التي تراوِدُ الممالكَ النصرانيةَ بضربةٍ قاضِيَةٍ، قضت — إلى حين — على الأطماعِ الصليبيَّةِ في المغرب، وحالت دون تسرّبها عن طريقه إلى المشرق!

وعندما يُحاولُ الباحثُ اليوم تحليلَ عواملِ النصرِ العظيم في معركة وادي المخازِنِ، تُطالعُهُ جملةُ الأسبابِ التي لا بُدَّ من توافرها لضمان النصرِ في كلِّ معركةٍ تخوضها أيّةُ أمةٍ من الأمم، دفاعاً عن نفسِها وأرضها وكرامتها، وأوّلُها وحْدتُها الوطنيةُ في مواجهةِ المغيرين المعتدين، وهذا ما تمكّنَ عبدُ الملكِ السعديُّ من تحقِيقِهِ للشعبِ المغربي، إثر طـرْدِ ابنِ أخيهِ المتوكلِ، ومبايعةِ الناسِ له، إذ قضى على

التمزُّقِ والفوضى والاضطرابِ، وجَمَعَ شمْلَ القبائلِ تحت رايته، وأعانتْهُ الحركاتُ الدينيةُ على توعيةِ الناسِ، وحثّهم على الانضواء تحت قِيادَتِهِ، لِجهادِ المحتلين، وتحرير الثغور منهم، وبذلك أصبح المغْرِبُ يَدَاً واحِدَةً، حتى لم يجد المتوكل من الأعوانِ المنشقين عن عمِّهِ غيرَ عددٍ هزيلٍ، يتمثل في ثلاثمائة أو ستمائة على الأكثر، يخرجون عن وَحْدةِ الجماعةِ، و يبيعون أنفسَهُم للشيطانِ، في حين أنّ المتوكلَ كان قد أوهم الملك البرتغالي بأنّ له شِيْعَةً كبيرةً تُناصره، وتُحارب تحت لوائه، لاسترداد عرشه المغصوب!

وثاني عواملِ النصرِ تكوينُ ذلك الجيشِ السعديِّ، والسهرُ على تنظيمِهِ وتدريبه وإعدادِهِ للمعركة الحاسِمَةِ، وقد زوّده عبدُ الملكِ السعديُّ

بأحسن السلاحِ وأوفره، حتى وجدنا مدافعه تفوق مدافِعَ البرتغاليين، واقتبس له من الأنظمةِ العسكريةِ التركيةِ ما يجعلُهُ من أحدثِ الجيوشِ في فن القِتالِ وأساليبِ الحربِ، فإذا أضفنا إلى هذا الجيشِ النظامي تلك الجموعَ الزاخرةَ من المجاهدين المغاربةِ، وأكثرهم من ذوي الخبرةِ في القِتالِ، لمرابطتهم في الثُّغورِ، ومناجزتهم المستمرّة للمجتلين، أدركنا أنّ الجيشَ الإسْلاميَّ الذي انتزع النصرَ في وادي المخازنِ كان في مستوى المعركةِ الهائلةِ التي خاضها، أمّا شجاعةُ المغاربةِ في القِتالِ والصمودِ حتى الاستشهادِ أو النصر فهي من مزايا الاخوة المغاربة التي تشهدُ لهم بها ميادينُ الحربِ عبر الأجيال حتى اليوم.

ولا بُدّ من الاشارةِ هنا إلى تفوُّقِ سلاحِ الفُرْسانِ

في الجيش السعدي، وقد استفاد المسلمون من كثرتهم، واستغلوا سرعةَ حركتِهم في الالتفافِ على العدوِّ، ومطاردته والايقاع به، وتنفيذِ الخطَّةِ القتاليةِ التي رسمها عبدُ الملكِ وأركانُ حربه بنجاحٍ كاملٍ، رأينا أثرَهُ في النتيجة الباهرةِ التي انتهتِ المعركةُ إليها.

وثالثُ عواملِ النصْرِ التخطيطُ الدقيقُ لكلِّ مراحلِ المعركة وعملياتها، وقد استفاد الملكُ السعديُّ هنا من خبراتِهِ الكثيرةِ ودهائه وسعة أفقِ تفكيرِهِ وحيلته، وفهمه لنفسية خصمِهِ الملكِ البرتغاليِّ الشابِّ الغريرِ وتمسّكه بأخلاقِ الفروسيةِ وتقاليدِها، حتى شَهِدْنا وقائعَ المعركةِ وكأنها تسيرُ في الطريق التي رسمها الملكُ السعديُّ وقدّر وقوعها، وهكذا اختار هو بنفسِه ميدانَ المعركةِ كما رأينا، وكانت

مكيدةٌ سقط الدون سباستيان في فخِّها، وكأنّه أعمى يُساقُ إلى حتْفِهِ، كما اختار عبدُ الملكِ السعديُّ توقيتَ المعركةِ، حين نجحَ في استثارةِ نخوةِ الملك البرتغالي فلم يبدأ بمهاجمةِ المُدُن المغرْبيةِ والاستيلاء عليها قبل وصولِ الملكِ السعديِّ وقُوّاتِهِ إلى القصرِ الكبيرِ، ولو عَمَدَ البرتغاليون إلى مُهاجمةِ تلك المدنِ، وبدأوا خوضَ الحرب منذ وصولِهم إلى المغربِ، قبل أنْ يستكملَ المغاربةُ استعداداتهم وجمعَ قواتِهم، لربما كانتْ نتيجةُ الحملةِ العدوانية على المغرب غيرَ تلك النتيجةِ التي شهدناها!

كان تخطيطُ عبدِ الملكِ السعديِّ للمعركةِ كاملاً ودقيقاً، وقد كان هدمُهُ للقنطرةِ على وادي المخازنِ سبباً من أسباب الحصار الذي أحدق بالهاربين وأدّى إلى تراميِهم في مياهِ النهر وغرقهم بالآلافِ

فيه، كما يدل تفكيرُهُ في هَدْمِ القنطرةِ على وعيه التخطيطيِّ الشامِلِ، وأكبرُ شهادة على جودةِ تخطيطِهِ للمعركة أنّ وقائعَ المعركةِ ظلَّتْ تسيرُ في طرقها المرسومَةِ لها، بعد موتِهِ المفاجىء، واستطاع حاجِبُهُ رضوانُ أنْ يُمثِّلَ بنجاحٍ كلي دورَ القائدِ العامِّ، فيصدرُ التوجيهاتِ حسبَ الخطَّةِ المرسومة، إلى النهاية الحاسِمَةِ التي قدَّرها الملكُ الراحل تقديراً، والتي تحقَّقتْ كما قدَّرَها وخطّط لها.

ورابعُ عواملِ النصرِ عبقريةُ القائدِ العام للمعركةِ ودهاؤهُ وتفانيه واخلاصُهُ، فهو البطلُ الأكبرُ في المعركةِ، وهو شهيدُها الأعظمُ، ومهارةُ عبدِ الملكِ السعديِّ تبرزُ للعيان في كلِّ مرحلةٍ من مراحل المعركةِ، لِتشهدَ له بعبقريتِهِ الفذةِ في القيادة، حتى لِيمكنَ القولُ إنّه كان يُحرّكُ خصمه كالدمية،

بدهائِهِ ومكرِهِ وحيلته، كما كان يُوجّه العملياتِ الحربيةَ بوعيٍ تخطيطي شاملٍ، فتسيرُ وقائعها في الطريق المرسومة، وكأنها من صُنعِ يدِهِ، وحسب ارادته!

وآخرُ ما نقفُ عنده من عواملِ النصرِ المغربيِّ العظيمِ في معركةِ وادي المخازنِ شخصيةُ الملكِ البرتغاليِّ الدون سباسيان ألقائدِ الأعلىٰ لجيشِ الحملةِ العدوانية الصليبيةِ على المغرب، وهي شخصيةُ شابٍّ ذي ذهنيةٍ هائمةٍ مُتعصِّبةٍ، مفتونةٍ بأخلاقِ الفروسية وتقاليدِها؛ شخصيةٌ حالمةٌ غيرُ واقعيةٍ، حظُّها من الخيالِ كبيرٌ، وحظها من العقل فقيرٌ، وفيها غرارةٌ ساذجة لم تعقلْها التجربةُ، حتى لتبدو كالطفولة الغريرة، وقد تمكَّنَ الملكُ السعديُّ الداهيةُ من فهم شخصيةِ خصمِهِ، وعرف الطريقَ

إلى السيطرةِ عليها، حتى أصبح الملكُ الشاب المتهوِّرُ المغرورُ كالدُّمْيَةِ بين يديه، يُحرِّكُها كيف يشاء، ويقودُها إلى مصيرِها الحزينِ دون أيّةٍ مقاومة!

والحقُّ أنّ الدون سباستيان كان مع ذلك فارساً شجاعاً، وقد شهدناه في المعركةِ يحاربُ ببطولةٍ واستماتَةٍ، وبعضُ المصادر المسيحيةِ تروي أنّ أربعةَ أفراسٍ هلكتْ تحته في القِتالِ في معركةِ وادي المخازن، وأنه كان يقول لأصحابه:

ــ إنْ تروني تروني أمامكم، وإنْ لم تروني فأنا في وسط العدوِّ، أقاتلُ عنكم!».

وأنّه ظلَّ يُحاربُ بشجاعةٍ، إلى أنْ خرَّ قتيلاً مُضرَّجاً بدمائهِ! هذا في حين أنّ المصادِرَ المغربيةَ تُشيرُ إلى غرقِهِ، والغرقى هم الهاربون الذين حاولوا

النجاةَ بأنفسِهم سباحةً في مياهِ النهر، فلم يتمكنوا من عبورِهِ فغرقوا، وفي رأينا أنّ الدون سباستيان في مثلِ عنفوانه وشجاعته لا يلجأ إلى الفرارِ من المعركةِ، وتمسُّكُهُ الصبيانيُّ بشرفِ الفروسيةِ يتناقضُ مع إقدامِهِ على الهزيمةِ وقَبُولِهِ بعارِها، ويمكنُ التوفيقُ بين الرواياتِ المسيحيةِ والرواياتِ المغربيةِ عن مصرعِهِ بترجيحِ مَقْتَلِهِ في ميدانِ المعركةِ، ومحاولةِ بعض أتباعه حَمْلَ جُثَّتِهِ والفرارَ بها كيلا تقعَ في يد المسلمين، ولكنّ القنطرةَ المهدومةَ لم تَدَعْ للفارين من المعركةِ طريقاً للنجاة غيرَ أنْ يحاولوا عبورَ النهرِ عَوْماً.. وهكذا غرقتْ «جثةُ» الملكِ الشابِّ، لِيَعْثُرَ المغاربةُ عليها بين الغرقى!

□ هذه هي معركةُ وادي المخازنِ..

□ معركةٌ من أكبر معاركِ الاسلامِ والعروبة،

وقد خاض المغارِبةُ أهوالَها، ولم يحققوا النصرَ العظيمَ فيها إلاّ بالصمودِ والاستماتَةِ واستشهاد الألوف منهم.

□ وفي طليعةِ شهداء المعركةِ أكبرُ أبطالها السلطانُ عبدُ الملكِ السعديُّ الذي قاد شعبَهُ العظيم إلى النصر.

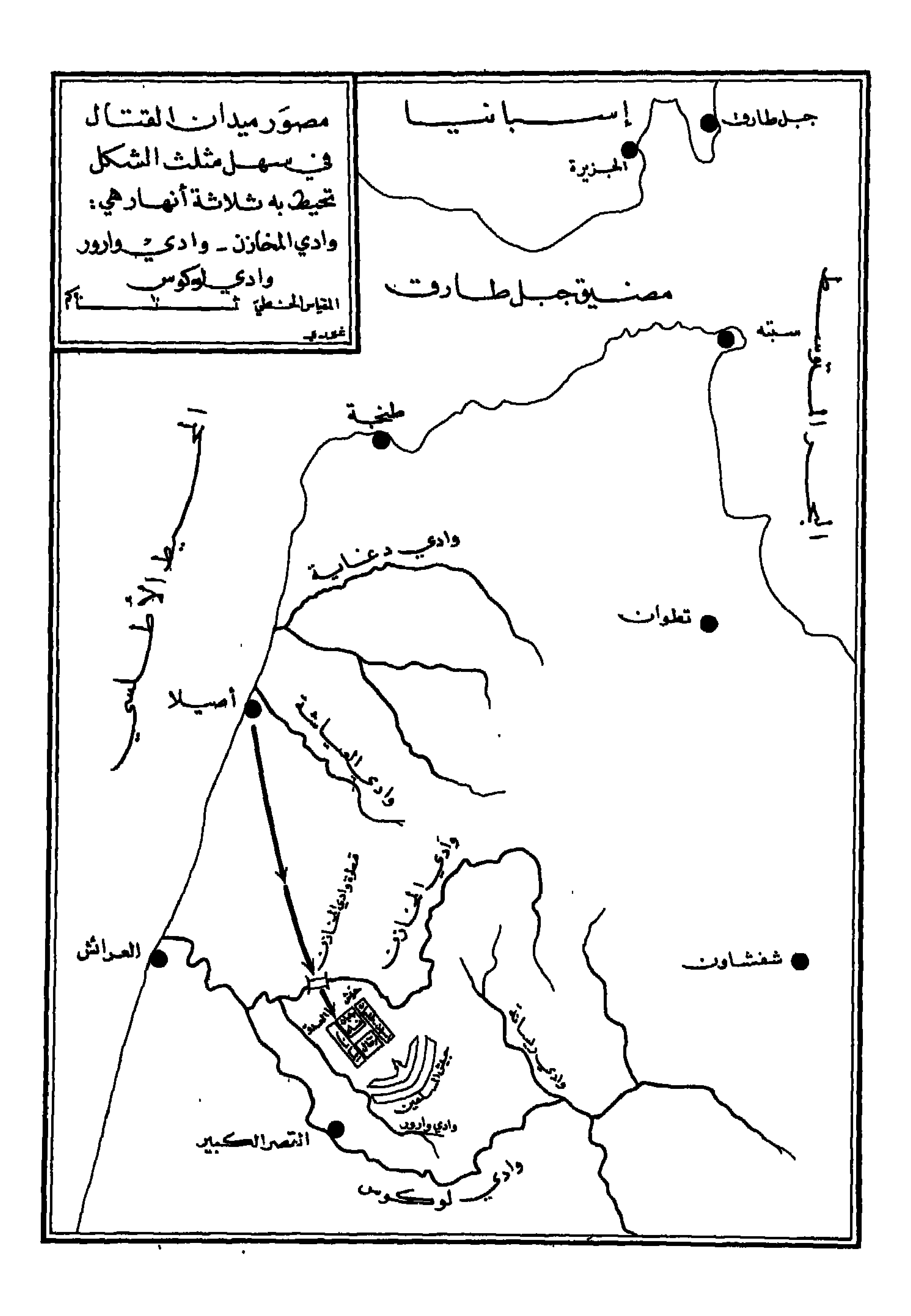
□ والقارىء المشرقي لا يكادُ يعرفُ شيئاً عن معركةِ وادي المخازنِ وأمجادِ أشقائنا المغارِبَةِ وبطولاتهم الخالدة فيها..

□ فهذا الكتاب إذاً تعريفٌ وتذكيرٌ وتحيةٌ.

المحتوى

المغرب الأقصى: نبذة تاريخية . . . .
الدولة السعدية تُناضل لتوطيد حكمها ٩
حملات البرتغال والاسبان العداونية على المغرب ١٣
عبد الملك السعدي وكفاحه لتسلّم مقاليد السلطة ٢٦
عبد الملك يُوالي اصلاحاته الاقتصادية والعسكرية ٣٤
الدون سباستيان يحلم بالاستيلاء على المغرب ٣٨
الدون سباستيان يُعِدّ للحملة الحاسمة ٤٥
دهاء عبد الملك السعدي في دبلوماسية السلمية ٥٣
المغرب يستعدّ لمواجهة الحملة الصليبية ٦٠
الحملة العدوانية: العبور والزحف ٦٥
مكيدة عبد الملك السعدي في اختيار ميدان المعركة ٧٣

وقائع المعركة الفاصلة ٧٧
خاتمة: نظرة تحليلية ٩٣
المحتوى ١١٠



مصور ميدان القتال
في سهل مثلث الشكل
تحيط به ثلاثة أنهار هي:
وادي المخازن - وادي وارور
وادي لوكوس
المقياس الخطي
إسبانيا
جبل طارق
الجزيرة
مضيق جبل طارق
سبته
طنجة
المحيط الأطلسي
وادي دغاية
تطوان
أصيلا
وادي العياشة
وادي المخازن
قنطرة وادي المخازن
العرائش
شفشاون
وادي وارور
القصر الكبير
وادي لوكوس

معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر

والدكتور عمر الدقاق

والأستاذ محمد الأنطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر



سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من القرن الهجري الرابع إلى العصر الحديث.

١ ـ معركة الحدث الحمراء ٢ ـ معركة الزلاقة ٣ ـ معركة حطين ٤ ـ معركة الأرك

٥ ـ معركة المنصورة ٦ ـ معركة عين جالوت ٧ ـ معركة فتح القسطنطينية ٨ ـ معركة وادي المخازن

٩ ـ معركة ميسلون ١٠ ـ معركة الجبل الأخضر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه إلا القادرون على الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية

حلب ـ المسلمية ـ المنطقة الحرة ـ